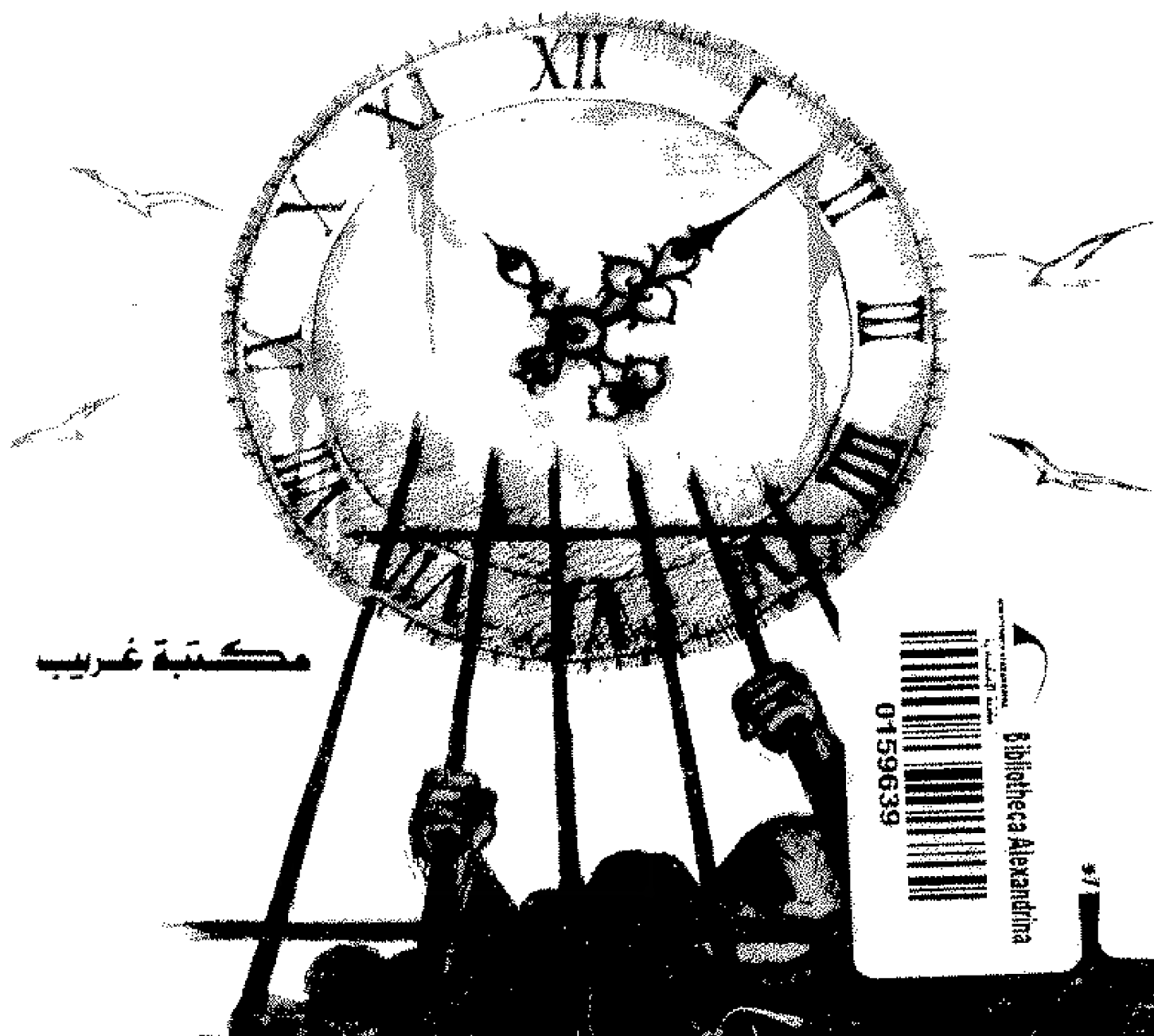


مجيد طوبيا

القول



Bibliotheca Alexandrina
0159639

الهؤلاء

مجيد طوبيا

القولاء

مكتبة غريب

الفصل الأول

آلة الزمن الموسيقية

● السبب في وقوع كل ما حدث ..

بدأ كل ذلك عندما كنت أقرأ كتاباً باغة ديار « أيسرط »
المجيدة ، التي كان من نصيبي أن أكون أحدر عاياتها . . . ولم
أكن أقرأ لما حدث شيء على الإطلاق ..

قرأت أن دوران الأرض حول نفسها يحدث في اتجاه مضاد
لدوران عقارب الساعة !! .. دهشت جداً وقلت : لماذا تدور
الأرض ضد الساعة وليس معها !! .. وظل هذا السؤال يشغلي
فترة طويلة ، إذ خطر لي أن هذا التضاد فال سيء سوف ينتهي
حتمًا بنهاية مريية .. وأنخذت أسائل نفسي عن المسئول عن هذا
الوضع الخطير ؟ 1

لكني سرعان ما تنبهت إلى أن الخطأ يقع على مخترع الساعة ،
ذلك أن الأرض كانت تدور في اتجاهها من قبل أن يصمم ابتكاره ،
وهو الذي شاء أن يختار لها الدوران بالضد !! ! وكان يمكنه أن
يفعل النقيض ، أن يركب تروسها وباقي أجزائها بحيث تدور
العقارب مع اتجاه دوران الأرض ، ولو فعل ذلك لما حدث لي كل
ما حدث من إهانات واتهامات ومن ابتعاد عن حبيتي واسعة
العينين ذات الهمسة الآسرة ..

وكي أكون منصفاً لهذا المخترع الذي لا أذكر اسمه أقول إنه

ربما لم يكن يعرف شيئا عن اتجاه دوران الأرض ، ومن الجائز جداً أنه كان يظنها ثابتة ..

وصار شغلي الشاغل هو البحث عن وسيلة لإصلاح الحال بحيث لا تخالف الأرض في دوراتها أى ساعة من ساعات بني البشر . .

● واقعة هامة سبقت كل ذلك :

لكن قبل أن يحدث كل ما حدث ، جرت واقعة هامة مفادها ما يلي :

فقد كنت سائرا ذات يوم في أحد شوارع عاصمة (أيروط) الفنية ، عندما شككت في أن ساعتى غير مضبوطة ، وللتأكد أوقفت أحد المارة وسألته عن الوقت . . هلقى نحوى مرتابا وقال باستنكار :

— أنا لا أحمل ساعة أبدا ، أتركها في البيت دائما .. انظر .
وسحب كم قيصه الأيسر إلى الخلف ليؤكد كلامه ، بالمثل فعل مع كه الآخر وهو يصيح في كل مرة : « انظر » .. ثم قال :

— كذلك لا أثبت قلما من أى نوع في جيبى العلوى الخارجى ولا حتى الداخلى ..

حملق في :

— أنا لا أستعمل هذه الأشياء، وخاصة عند حديثي مع المثقفين ؟
حدثت نفسي بأنني وقعت على رجل مجبول ، وكانت حماقته
زادت فأسرعت مبتعدا عنه عابرا الميدان من ناحية اليسار ،
تحت لأنه اتجه إلى الناحية الأخرى ؟ إلا أنني عند عبوري
م المفهى إذ به يلحق بي بابتسامة مرتعشة ويقول :

— لعلك تظنني مجنونا ؟ !

قلت في جفاء :

— أنا لا أظن شيئا .

ثم مشيت مقطبا فصار بجوارى :

— اعطني فرصة كي أثبت لك عدم جنوني ..

واجهته غاضبا :

— سيان عندي إن كنت مجنونا أو عاقلا ، هذا لا يهمني ،

بل عني . .

ثم أسرعت لكنه تبعني متوسلا ، دافعا ببطاقة هويته أمامي
فلمحت اسمه فاذا هو أحد أدباء « أيبوط » النصف معروفين !
لم أصدق من باب الحذر وأمسكت بالبطاقة وفحصتها جيادا
تبدو حقيقية وإن كان من الجائز أن تكون مزيفة ، لكنه أراني
يرته في مجلة بيده .. قال :

- فنجان قهوة على هذا المقهى وأشرح لك كل الأمر ..
- ونادى الجرسون باسمه ، ثم استدار نحوي :
- أنت لست من هذه المدينة ؟؟
- فعلا .: أنا وافد حديث
- خمنت ذاك بمجرد سؤالك عن الساعة
- زادت دهشتي .: قال :
- أى مثقف من هذه العاصمة يتحاشى ذكر الساعات
- عاودنى شكى فى خبله ، لكنه حكى لى حكاية غريبة . .

● الحكاية الغريبة التى رواها لى :

قال :

- ويمكنك اعتبارها نكتة لو استظرفتها ..
- إنى منعت ..
- الأمر يتعلق بمشائعات جارية تربط بين بعض مثققي ديار
- ايبوط وبين « الهؤلاء » .
- سكت متفحصا رد فعلى عقب ذكره لسيرة « الهؤلاء » ..
- لكنى حرصت على أن يظل وجهى جامدا لا ينم عن أية انفعالات—
- والخبر فى مثل هذه الحالة واجب يفرضه التعقل — إذ أن
- المثقفين يستعملون كلمة الهؤلاء للدلالة على رجال المباحث
- والعسس والمتعاونين معهم . .

ثم عاد جليسى إلى الكلام :

— تقول هذه الشائعات الجارية بأن نسبة المتعاملين سرا مع الهؤلاء من بين المثقفين تصل إلى الخمسين في المائة : من كل عشرة خمسة ومن كل ستة ثلاثة ، وهكذا ... وحدث أن جلس اثنان معا فسأل أحدهما الآخر إن كان من الهؤلاء ، فرد نافيا ذلك ، فقال له : إذن فهو أنا !! ..

ضحك .. فابتسمت مجاملا إذ لم تعجبي النكتة .. لاحظ
هو ذلك فقال :

— مع أن المثقفين يضحكون جدا وبعبسية شديدة من هذه النكتة !! بالفعل أنت قروى !
ثم خفض من صوته موضحا الأمر :

— يساهم المثقفون من صحفيين وأدباء وفنانين في توجيه الرأى العام ، هذا أمر معروف ؟؟
— نعم

— لذلك فهم أكثر الفئات تعرضا لأن تراقب تصرفاتهم وأقوالهم ، ولأن تصادر حرياتهم .. ولعلك تعرف أن ذلك يحدث في بلاد عديدة مثل بلادنا حتى صار من سنن الحياة !!
لم أعلق : قال :

— ويظن المثقفون في هذه البلاد العديدة أن أحاديثهم الخاصة يتم تسجيلها بمعرفة هؤلاء ، عن طريق أجهزة تسجيل دقيقة توضع في ساعة بمعصم محدثهم أو في قلم بجيبه العلوى . أو ما شابه ذلك من مخترعات حديثة ..

حزن صوته :

— لذلك نجد الواحد منهم يبدأ حديثه معك طبيعيا إلى أن تقع عيناه على ساعتك فيتبدل حاله ويتراجع في أقواله .. ويتحول — في نغمة عين — من إنسان مثقف إلى أسطوانة مشروخة يظل يكرر الآراء المنشورة ، وينهاه مدحا وتثريضا لصفات « الديجم » رئيس ديارنا المحبوب ودون مناسبة أو مبرر .. يبدأون بالشك في كل غريب ، ثم في الأصدقاء البعيدين وينتهون بالرغبة في أقرب الأقرباء إليهم ! .. وكنت أعرف أن دورى قادم فأنا أضع ساعة في معصمى لأن معرفة الوقت أمر هام جدا ، كما أنى أحب أن أحمل القلم في جيبى لأن تسجيل الحواطر فور ورودها على الدهن أمر حيوى بالنسبة لى . لكن نظرات الرعب في عيونهم أشعرتنى بالإهانة ، فتنازلت عن حمل هذه الأشياء ، وتخلصت مرعما من قلبنى فضاعت منى كثير من الترويمات المبتكرة !! ومن ساعتى فلم أعد أحافظ على دقة المواعيد .. عندما يرتبط أحد المثقفين معك بمرعد فانه يقول لك : قابلنى صباحا أو بعد الظهر أو مساء ولا يحدد لك وقتا محادا لأنه لا يحمل ساعة ! !

تهند : . ثم نظر إلى الشارع وشاعت الحركة في نظراته قائلا
في أسى كبير :

— وسأرياك فورا تجربة عملية .. انظر ..

● التجربة العملية التي أجراها في وجودي :

وقف مرحبا برجل كان يهبط من سيارة جديدة . . ثم قدمه
لي فعرفت أنه صاحب قلم مشهور .. نغمزني ثم مضى يقول رأيته
في رئيسنا « الديجم » وفي بعض الساسة بسخرية لاذعة ، فضحك
صاحب القلم المشهور بابتسامة واسعة مشرقة وبدأ يشارك في
الهجوم . . لكنه فجأة — ولدهشتي الحزينة — وقع نظره على
ساعتي البارزة من كم قميصي ، فبرقت في عينيه نظرة خوف كريهة
وصارت ابتسامته مرتعشة ، ثم اقترب بفمه من معصمي وقال
بنبرات واضحة :

— على العموم فإن هذا رأيك أنت ..

— طبعا توافقني عليه ٩٩

قرب بفمه أكثر من ساعتي وقال بصوت أعلى :

— رأيي في هذا الموضوع والذي لا أحيد عنه هو

ومضى يردد بصورة آلية ومن حنجرة باردة غير متلونة آراء

سمجة لا تخرج عما يردده راديو وتلفزيون وصحافة أيبوط الفتية .
.. ثم استدار إلى الشارع مغيرا مجرى الحديث بتعليقات أخذ
يطلقها على كل عابرة من أمامنا فهذه رائعة ترم العظام وهذه تعيد
للكهل شبابه وهذه تدفء المرء في برد الشتاء .. ثم ذكر بعض
الشائعات الجنسية عن ممثلة سينمائية معينة وأخرى مسرحية مشهورة
جدا ، وتحدث عن الشذوذ عند الذكور من الشخصيات العامة
وذكر في هذا المجال عددا كبيرا جدا من الأسماء اللامعة ..

وعقب ذلك نهض إلى سيارته منصرفا ، فقال جليسي :

— من يسمعه يظن أنه ذئب نساء خطير ، وأمره مع المرأة قد
انتهى منذ سنوات .. يكتب مقالات معادة في السياسة لكنها جيدة ،
ويحشر نفسه في الأدب والفن فيبدو غبيا ضيق الأفق ..

● تنبيه قبل أن أعود إلى الحكاية الأصلية :

ليكن معلوما أن كلا من صاحب القلم المشهور والأديب
النصف معروف هما شخصيتان من اختراعي ، ولا علاقة لهما
بالواقع المعاش في ديارنا الأيبوطية المظفرة .. كذلك الحال مع
جميع الشخصيات التي قد يأتي ذكرها فيما بعد ..

وقد تعمدت ذكر هذه الحقيقة حتى لا يجهد أحد ذهنه في
محاولة تخمين لا جدوى منها .. فهذه الرواية لم تقع هنا ؛ لم

تحدث الآن : . وإنما حدثت أحداثها إبان زمن غير مؤكد وفي بقاع غير معروفة . . . لذا لزم التنويه ..

كذلك فإن شخصية الراوى — الذى هو أنا — تخيلية غير مرجودة .

● عودة إلى دوران الأرض ودوران الساعة :

بعد حكاية ساعات المثقفين السابقة قرأت بالصدفة — فى كتاب باللغة الأيوبوية — عن دوران الأرض ، وكيف إنها تدور ضد الساعة ١١ . . . وخطر لى — كما ذكرت — إن هذا التضاد فآل سىء .. فكيف نتلافى هذا الاختلاف ١٢

جلست أشعل لفافة تبغ من لفافة تبغ — فهكذا يفكر أبطال أفلامنا — متأملا الدخان الكثيف الذى لم يكن يتصاعد إلى سقف الغرفة وإنما كان يتبعثر خارجا من النافذة .. وكررت ذلك إلى أن وابتنى الفكرة النيرة التى أدت إلى تعرضى للإهانات والافتراءات وإلى افتراقى عن حبيبى الحميرية دافئة الحضن . .

ذهبت إلى مبنى إذاعة وتلفزيون أيوط ، حيث وجدت عددا من « الهؤلاء » يحرسون المدخل ، استوقفنى أحدهم وسألنى عن هدفى فلم أفصح وقلت له :

— أريد مقابلة المدير . .

زاد احترامه لى وسألنى فى أدب مبالغ :

— أى مدير ؟؟

— مدير الإذاعة والتلفزيون

— لكل منهما مدير أيها السيد

— أريد مقابلتها معا ..

أمسك قلمه ليكتب فى دفتر طويل عريض أمامه اسمى ورقم هويتى .. فدهشت وسألته عن جدوى هذه الاجراءات ؟! فهمس وعيناه تغمران فى خطورة :

— احتياطات أمن ضرورية ، تعرف أن لنا أعداء ..

ثم عاد يسألنى عن هدفى من الزيارة ، فعرضت عليه المشكلة فى تبسيط شديد يليق بإلمامه العلمى الضئيل ، إلى أن قلت فى هدوء شديد :

— أما عن تغيير دوران الأرض فهذا محال ، على الأقل فى حدود المتاح لنا علميا الآن .. فيكون الحل الوحيد والذي لا يوجد غيره هو دعوة الناس إعلاميا إلى المشاركة فى مناقشة هذه المشكلة وحثهم على المساهمة بأفكارهم كى لا تدور ساعاتهم ضد الدوران الطبيعى للأرض ، وبذلك تقتل الفأل السىء ..

خلق الثلاثة إلى بعضهم البعض بطريقة مريبة !

● أنه يتحدث عن القتل ! :

هكذا همس الأول فهمس الثاني :

— تحدث فعلا عن القتل !!

جحظ الثالث :

— القتل !!

ومن فوري ارتعبت وتركتهم وفررت هاربا مشيعا ببعض
الأشياء القابلة للقذف ..

● حديث مريب عن الرموز :

بعد أن اطمأنت إلى أن أحداً لا يطاردني انتحيت جانبا إلى
شاطيء النهر ، حيث جلست على السور الحجري قريبا من الكوبرى
الخشبي ، وكانت بعض السحب تحجب الشمس ، وكنت عرقانا
لهائنا عندما اكتشفت رجلا بعين جاحظة يجلس إلى جوارى مبسما
في لزوجة ويقول :

— كان نصيبي أن سمعت كل حديثك مع حراس المدخل ..

قلت في سري أنه واحد من هؤلاء .. قال :

— لا لست واحدا من هؤلاء ..

قلت لنفسى أنه يكذب .. فقال :

(م ٢ - هؤلاء) ١٧

— وأنا لا أكذب يا عزيزي

فماذا يريد إذن ؟ .. قال :

— أدهشتني فكرتك عن دوران الساعات البشرية ضد اتجاه دوران الأرض .. فهل تقصد البشر في أيوط فقط أم البشر في جميع أنحاء العالم ؟؟
لم أرد .. قال :

— وهل هذه حقيقة واقعة فعلا أم أنك تقصد من وراء ذلك رمزا ؟؟

إنه يستلرجني ، لن أتكلم .. قال :

— أنا لا أستلرجك إلى أي شيء ، تبهو ناصحا .. ولكنني شغوف لمعرفة إن كنت تقصد بعض الرموز في كلامك هذا ؟؟

— وما هي هذه الرموز ؟؟

— مسألة أن ديار أيوط السعيدة تسير ضد الزمن وليس

معه !!

هذا كلام في السياسة ، لن أتكلم .. قال :

— أنا لا أجرك إلى كلام في السياسة ، صدقني ، لكنك تعرف أن لبعض الناس آراء حقاء : إذ يزعمون بأن هذه الديار قد تخلفت عن حضارات هذا القرن بعشرات السنوات !! .. وهذه سخافة ،

فالذى حدث أن هذا القرن هو الذى سبق هذه الديار بعشرات السنوات ..

حملت إلى عينيهِ الجاحظتين :

— وما الفرق 1؟

— فرق كبير .. فهم يزعمون أن أيوط الخالدة قد تخلفت ،
وأنا أقول بأنها لم تتخلف أبدا ولكن هذا القرن هو الذى سبق .
لزمت الصمت موقنا بأنه معتره ولا ريب • . فابتسم في
رحابة صدر :

— لست معترها ..

اغتنظت وتركته هاربا بأقصى سرعة ، حتى عبرت إلى الضفة
الأخرى للنهر .. لكنه كان يتبع أثرى فوق أرضية الكوبرى
الحشبي مستخدما حاسة الشم !!

● أرجوك أن تسامحه :

.. بعد ذلك عدت إلى الضفة الأولى بواسطة أحد القوارب
من قبيل التضليل .. وفي الميدان الكبير وجدت آلة الزمن
الموسيقية الضخمة ، وتحركات عقاربها تجرى على عواهنها ،
وأصوات موسيقاها صخب وضجيج !! .. وجلست أتذكرها

عندما كانت جديدة ومصانة ، لكل ربع ساعة فيها نغمة خاصة ترقص عليها عرائس بديعة تظهر وتختفي في الوقت المناسب وفي تناسق ساحر يأخذ بالألباب .. وقلت : تدهورت آلة الزمن الموسيقية بعد أن كانت أعجوبة في الدقيقة ١١ .. ثم تحاورت مع نفسي عن بعض الدول التي تتحدث فقط عن العلم مع أنه لا يدخل في تكوينها النفسى أو الحياتى ، ثم أخذت أقول بأن تلك هى علة العلل .. وعندئذ إذا بي أسمع صوتاً يقول :

— معك حق فى كل هذا

تنبهت إلى حلقة رجل يجلس لصقى .. فارت دمائى ، صرخت فيه :

— هل تتجسس على أفكارى أنت الآخر ١٢

قال فى هلموء مريب :

— أيتها السيد العزيز : كيف يمكننى معرفة أفكارك وأنت لم تحدثنى بها بعد ١٣

لاحظت شدة شبهه بالجناحظ السابق .. فقال على الفور :

— إنه أخى ، وقد أرسلنى كى أبلغك اعتذاره ، يأسف أخى إن كان لقد سبب لك بعض الازعاج .. وقد تركته يبكى فى

البيت ندما على ما بدر منه : . وأنى باسم رئيسنا الديجم الرائع
أرجوك أن تسامحه : .

قلت أتخلص منه :

— سامحته

— شكرا لك يا سيدى العزيز

ثم نهضت مستأذنا ..

● دعوة لزيارة الملك المصرى القديم :

.. لكنه اعترض طريقى سائلا :

— كم الساعة منك الآن ٢٢

— الثانية عشرة والنصف ساعة

نظر فى ساعته وقال :

— كما لاحظ أخى تماما .. ساعتك تتقدم الوقت الرسمى

بنصف ساعة ، فنحن الآن فى الثانية عشرة فقط ، والدليل على
ذلك أن ظلالنا أسفلنا تماما ، فالشمس الآن عمودية تتوسط
السماء ..

— أعرف أن ساعتى تقدم نصف ساعة ، وهذا يسعدنى ..

وأرجوك أن تدعنى لوحدى ..

— هل يسعدك نخل الساعة ١٢ أم هي رغبة دفينة بداخلك
لسبق الزمن الرسمي ١٢

لم أرد عليه ، وكان صبرى قد نفذ ، ولم أكن أريد الحديث
معه ، فقلت له مهلدا :

— إن لم تتركنى ضربتك ..

ألح فى لزوجة :

— حلمك يا عزيزى .. واسمح لى أن أصحبك فى زيارة
قصيرة

هددته بقبضة يدي محذرا . فقال مصرا :

— عفوا أيها السيد الغالى .. زيارة قصيرة لمتحف آثار مصر
القديمة قد تعطينا الإجابة على مشكلة الزمن التى تشغل ذهنك

● السر المفقود :

وأخذنى فى رحلة سياحية إلى هناك ، حيث قادنى رأسا إلى
غرفة المومياءات .. أشار إلى مومياء ملك المصريين القدماء الملك
الطفل المسمى « توت — عنخ — آمون » . وقال :

— دقق النظر إلى هذا الفتى الوسيم

تفحصت وجه الملك .. كان ناظرا إلى أعلى وفي هدوء ،
نضر الوجه كأنه يهم بالابتسام .. سألتى :

— هل تجد أية تجاعيد على وجهه ؟؟

— إطلاقا ، فهو لم يكمل بعد العشرين عاما

— متى كان ذلك ؟؟

وجمت ، وحاولت تذكر الوقت الذى عاش فيه .. قلت :

— منذ حوالى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد

— وما زال شابا ؟؟

—

— وما زال شابا ؟؟

قلت :

— لكنه محنط .. أى ميت !!

— فهل تجد فى هذا الأمر معنى رمزيا ؟؟

احترت ، ها هو يعود مثل أخيه إلى حديث الرموز .. شعرت
بدوار من هواء المتحف الراكد ، فخرجت على الفور .. وعدت
من سياحتى القصيرة هذه إلى جلستى الأولى عند آلة الزمن الموسيقية
التي عطبت ، حيث وقف الجاحظ يودعنى :

— وبخصوص دوران الأرض يسأل أخى : أولاً ، هل أنت متأكد أنها تدور أصلاً ١٢

— العالم كله يعرف ذلك

— حسناً وإن كنت أكره المسلمات .. فهل أنت واثق
— يسألك أخى — من أنها تفعل ذلك فى اتجاه مضاد للحركة
عقربى الساعة ؟؟

هز كتفيه ناعماً :

— أرجوك التأكد من هذا

● هذا مكتوب :

عدت إلى الكتاب الذى قرأت فيه مسألة الدوران هذه ،
وكان من حسن حظى أن وجدت على ظهر الغلاف صورة للمؤلف
أسفلها نبذة عن حياته ومؤلفاته وناريخ ميلاده وعنوان «سكنه» ،
ومن فورى قررت زيارته ..

وفى إحدى الفيلات الأنيقة وجاتته يداعب كلباً صغيراً له
كمامة على فمه ، مضى يتحدثني عن عراقة سلالته ، وعرفني باسمه
موضحاً بأنه لا يستجيب إلا لصوته هو فقط .. ثم طاب منى أن
أجرب ، فناديت على الكلب باسمه فلم يتحرك ولم ينظر لى بتاتا ..
فضحك صاحبه مؤلف الكتاب وناداه فدب النشاط فى جسده
وهز ذيله .. قال :

– النوع الأصيل لا يستجيب إلا لصوت صاحبه فقط ..
ثم حدثني في إفاضة عن إضافاته في مجال العلم الأيوطي ،
وقال أنه توصل إلى أشياء لم يتوصل إليها أحد من قبل .. ثم
تواضع قائلاً :

– أخمن أنك أحد المعجبين بـ

– أنا مؤمن بالعلم يا سيدي

– هذا أمر يسعدني

– ومن رأي أن نزرع حب العلم في نفوس الناس منذ
طفولتهم حتى يتحول إلى سلوك في حياتهم وليس إلى مجرد كلام
للتظاهر

– رأي سديد

– وقد قرأت في كتابك أن الأرض تدور في اتجاه ضد
دوران الساعة

– هذا مكتوب في الكتاب

– ولما كان هذا أمراً عجبياً فقد جئت للتأكد منك

– هذا مكتوب

– لكن أحد الناس شككني في احتمال أن يكون هناك خطأ ما

انقلبت سخنته ورمقني في غضب :

— هل أنت من أتباع الدكتور الحمار ؟؟

— لا أعرف أحدا باسم الدكتور الحمار !

— حقا ١٢

— بالحقيقة لا أعرفه

— إنه ذلك الجاهل الجهول الذي يدعى العلم أكثر مؤي
وينافسني في تأليف كتب العلم الأيبوطي .. هل أرسلتك لتد
سمعتي وسمعة مؤلفاتي ١٢ هل أنت قريبه ؟؟

— اطلاقا .. لا

— صديقه ؟

— ولا صديقه

— فأنت أحد مأجوريه

وقبل أن أنكر ذلك أتى بحركة قام على أثرها الكلب بالته
ضدي وظل يزوم في وجهي .. شعرت بالخوف لكن ال
في فيه طمأننتي ، قلت :

— سيدي المؤلف ، لا أطلب أكثر من الإجابة بنعم أو لا
هل أنت متأكد من أن الأرض تدور ضد الساعة ؟؟

— هذا مكتوب

— فهل أنت متأكد منه ؟؟

نهض وأحضر كتابا ضخما يبدو أنه إحدى الموسوعات العلمية وقالى :

— سترى أننى على صواب

● كلب المؤلف يتدخل فى المسألة :

... وظل يبحث ويقلب بنرفزة ثم بحيرة وعصبية ، ولا أدري إن كان قد وجد الجواب أم فشل فى ذلك ، إذ كف عن البحث زهقا .. فسأله :

— هل قرأت شيئا ؟؟

رد فى غضب :

— قرأت ما قرأت أيها البلطيجى ، ولا شأن لك به .. حتى لو كانت الأرض ساكنة !! تدور أو لا تدور !! ما شأنك أنت بهذه الأمور المعقدة !!

ثم حرض كلبه ضدى فوقفت مزعما الفرار ، فقفز بثقله نحوى وأرقدنى تحته وظل يحاول نهش جسدى لولا الكمامة .. حاولت النهوض لكنه كان مدربا .. فجاهدت فى مقاومته زاحقا

ناحية باب الحقيقة ، بينما المؤلف بتوعدن نفسها برئيسنا الديجم
راعى العلم بأنه فى المرة التالية سيرفع كرامة الكلب . . ورأيت أحده
رجال « هؤلاء » فى الخارج عاستنجدت به لكنه وقف يفرج على
الموقف شغوفاً ، ولم يظهر أى تعاطف معى ، وإنما أبدى عظيم
إعجابه بمهارة كلب المؤلف . .

● البلف وقراءة الكف وأمور أخرى :

وضع الجرسون أمامى فئجان القهوة الثانى ، وللمرة الثانية نزار
إلى مسترياً . . كانت ملابسى متسحمة ممزقة من شالب الكتاب الفظيع ،
وربما ظننى الجرسون متشرداً لا أملك حق ما أثرب ، لذلك دفعت
حسابى وتعمدت ترك بقشيش كبير ، أخذه ولم يشكرنى ومضى . .
أخذت أركز ذهنى لأفكر بطريقة منظمة ، واستغرقت فى ذلك
وقتاً لا أعرف قدره تماماً . . إلى أن تنبت على ورقة تلقى أمامى ،
قرأتها فوجدت بها ما يلى : « الواقف أمامك قارىء كف وفئجان
متخصص ومنجم — يقرأ الطالع ويحسب المستقبل — الواقف أمامك
هو أول عراف يحسب الغيب على أسس علمية — شهادات من الخارج
ودراسات متخصصة من بلاد نائية »

نظرت إليه فوجدت ملابس رثة فوقها لحية مشعثة تحيط بوجه
شاحب وشفاة متشققة لا توجد إلا مع دعدة خاوية . . أعطيته
بعض المال القليل كمساعدة فانصرف داعياً لى . .

وعدت أحاول التركيز في التفكير المنظم الذي كنت قد نويته
. . . فر بي ماسح أحذية ثم أحد الشحاذين من بعد بائعة المثلجات
فمستولة صغيرة ثم ضرير ثم رجل يحدث نفسه بصوت مرتفع
— ولم يكن هناك من يتسم — ثم وضع رجل أممي ورقة صفراء
قرأت فيها ما يلي : «حبوب الأرواح — مقوى وفيد يزيل الرطوبة
أكيد — من إحييل الفساح وجماعة أعشاب لا يمكن الحصول عليها
— يمنع ارتخاء الأعصاب عند الشيوخ والشباب — يساعد في الواجبات
الزوجية ويشعر آخذه بلذة لم يسبق لها مثيل — مسجل بوزارة
الصحة والحياة الأبوية تحت رقم سرى — فاطلب العلبة من موزع
الإعلان قبل نفاذه »

أعدت إليه الإعلان مشمئزاً ، وعندما انصرف لاحظت عن
قرب رجلا بعين جاسفة يحفظ نموى فكرهت كل شيء ولمضت
. . . وبعد أن ابتعدت نفارت خلفي فوجدته يتبعني فقرر رأي أن أففده
أثرى ، موقفا أنه أحد الهؤلاء . . .

وأخذت أراوغي في منحنيات المدينة حتى اختفى تماماً من
ورائي : . . . لكنني فجأة وجدته أمامي (قد يكون واحدا آخر شبيهه)
. . . فجريت بأقصى سرعة وظللت أجرى حتى سمعت هدبرا صاخبا
يبدو وكأنه صادر من آلاف الحناجر الصارخة ، ففرحت وقلت
استجير بـم ، وتوجهت نحو الصوت . . .

● الزمن الضائع :

وجدت الأصوات الهادرة تنبعث من داخل بناية أسمتية عملاقا شبه دائرية ، كأنها بيت الغول . . وكانت هناك سيارات كثيرة من شتى الأنواع والألوان وشاحنات ضخمة مكتوب عليها : « شرطة أيبوط - فرق تفريق المظاهرات المعادية » . .

بقلب واجف دخلت ، وكلما ارتفع الهدير البشرى في أذنى كلما تراقصت أحاسيسى . : يمكننى الاحتفاء بالناس - هكذا فكرت - وإن وجدت فرصة شرحت لهم الأمر كله وربما تمكنت من إقناعهم .

ثم بدأ يتكشف لى تدريجياً فإذا بى فى ملعب لكرة القدم !

تقدمت مذهولاً إلى وسط الاستاد . . عشرات الألوف من المتفرجين المنقسمين إلى جانبين ، كل جانب يصيح فى وجه الآخر ! . . ورجال الأمن متحفزون بالدروع فى مواجهة المدرجات . .

تنبه إلى اللاعبين واحداً تلو الآخر ، ثم الحكم وكان ممتقع الوجه ، ثم وجدت نفسى فى مواجهتهم . . ويبدو أن المتفرجين تنبهوا كذلك إذ بدأ الهدوء ينجم تدريجياً، وجاء صمت رهيب أصابنى بالرهب . . وكل العيون تنظر نحوى !!

تمالكت وبدأت أتكلم ، وللأسف فقد كان صوتى ضعيفا ،
كنت فى حاجة إلى مكبر صوت كى يصل صوتى إلى هذه الألوف
الغفيرة . . . وكنت أتكلم بالصوت والإيماءة ، وأشارت إلى ساعتى
أكثر من مرة ثم إلى رأسى ، ثم عدت أركز الإشارة إلى الساعة
فعادت الجماهير تزوم ١١ . . . وحدث أمر عجيب : أحد الجانبين
هلل مؤيدا وهاتفا لى ١ فلما توجهت نحوهم سعيدا لأشرح لهم كل
الأمور إذا بالجانب الآخر يزوم ضدى ويلقى نحوى بأكوام كبيرة
من الطوب وقشر البرتقال وزجاجات الكازوزة الفارغة ١١

وعند هذا الحد جريت هاربا . . إلى الشارع ، وأنا فى حيرة
من أمرى ومن أمرهم ١١

● جاحظ العينين يفسر بعض ماغمض من الأحداث السابقة :

ظلمت أجرى وأجرى مبتعدا عن بناية الأسمت الهائجة بالأصوات
البلهاء ، داخلا إلى شوارع تحيطها البنايات العالية من كلا الجانبين ،
إلى أزقة ضيقة خالية من الناس . . . حتى اطمأنت إلى أننى لم أعد
مطاردا ، وكنت ألث فوقفت أستريح وأغمضت عيني أريجهما ،
لكنى تنهت على سماع أنفاس خافتة عن قربى ، رغم اننى لم أسمع
خطوات تقترب ، فتحت عيني . .

كان جاحظ العينين (أو بديله) يرسم ابتسامة لزجة . : قال :

— لقد أثرت فتنة بين جمهور الكرة وحاولت دفعهم إلى التفكير ١١

حملت إليه . . قال :

— هذا انتهى لك : لقد أحدثت وقعة بين الكرويين وهم
كائنات مسالمة لا تبغى غير التسلية التي لا تجهد الدهن .

وأخذ يشرح في رتبة — والعهد عليه — أن المباراة كانت
قد وصلت إلى نقطة حرجية ، وكان الحكم في حيرة من صحة إحدى
الرميات وكان يتشاور مع مساعديه إن كان هناك وقت ضائع أم لا
. . والذي حدث في تلك الآونة ان دخلت أنا وظللت أشير بأصبعي
إلى ساعتي ، وإشاراتي هذه هي التي جعلت الجميع يصمتون ظناً
منهم أنني أدلي برأي في مسألة الوقت الضائع . . لذلك هلك الجانب
الذي يرى أن إطالة وقت اللعب في صالح فريقه ، وانهاك الجانب
الآخر على بالسباب . . وبعد هروبي تطاول بعض من هنا على بعض
من هناك وقامت معركة عظيمة أدت إلى إصابة أحد كبراء الأمن
بحجر في أنفه فانبعثت . .

ثم وضع الجاحظ أصبعه في وجهي :

— سوف نتحدث صحافتنا الحرة غدا عن فتنة بين أهالي الكرة
أنت مثيرها !

● وشوشة الحبيبة :

لذت بشقي وقلت أتوب عن الفضول وعن حث الناس على التفكير .

أغلقت الباب جيداً وتأكدت من جميع النوافذ . وبعد أن
أطفأت جميع الأنوار رحت أحاول نسيان ما أصابني من عنت وتعيب ،
بتذكر وجه حبيبتي واسعة العينين . . فبدأت أسمع همساتها الرقيقة
في أذني ، توشوش فيها بكلمات الحب ، وتعطيني شفيتها في قبلات
راغبة دافئة . . وشيثاً فشيئاً ومن بين الظلام تجسدت لي ، بابتسامتها
الساحرة ذات الغمازتين ، وجاءت إلى جوارى ورحت أفك ضفيريها
لينسدل شعرها طويلاً رائعاً فوق كتفيها الناعسين ، وأخذتها في حضني
وصرنا نتقلب معاً حتى انتشينا وتهادينا في نوم هادئ قرير بعد أن
أطفأنا النور . . .

● الجاحظون :

. . . لكنني تيقنلت فجأه على اللمة مضاعة . . وبعد أن زالت
غشاوة النور المباغت فوجئت بسبعة من رجال الهؤلاء يحيطون
بسريري — أظنهم ثمانية — وكان الرقت ليس كالنهار وليس كالليل . .
وكانوا جميعاً من ذوى العيون الجاحظة الذين قال أكثرهم بحوذا :

— باسم رئيسنا الديجم العادل ستأني معنا

جلست غير مصدق . . فكرر قولته السابقة . . وقلت له :

— هل أنا متهم يا سيدى ؟!

— فلتنهض معنا

— وبخصوص دوران الأرض يسأل أخى : أولا ، هل أنت متأكد أنها تدور أصلا ؟!

— العالم كله يعرف ذلك

— حسناً وإن كنت أكره المسلمات .. فهل أنت واثق

— يسألك أخى — من أنها تفعل ذلك فى اتجاه مضاد لحركة عقربى الساعة ؟؟

هز كتفيه ناصحا :

— أرجوك التأكد من هذا

● هذا مكتوب :

عدت إلى الكتاب الذى قرأت فيه مسألة الدوران هذه ، وكان من حسن حظى أن وجدت على ظهر الغلاف صورة للمؤلف أسفلها نبذة عن حياته ومؤلفاته وتاريخ ميلاده وعمران مسكنه ، ومن فورى قررت زيارته ..

وفى إحدى الفيلات الأنيقة وجأته يداعب كلبا ضخما له كمامة على فمه ، مضى يحدثنى عن عراقة سلالته ، وعرفنى باسمه ، موضعا بأنه لا يستجيب إلا لصوته هو فقط .. ثم طلب منى أن أجرب ، فناديت على الكلب باسمه فلم يتحرك ولم ينظر لى بتاتا .. فضحك صاحبه مؤلف الكتاب وناداه فذب النشاط فى جسده وهز ذيله .. قال :

— النوع الأصيل لا يستجيب إلا لصوت صاحبه فقط ..
ثم حدثني في إفاضة عن إضافاته في مجال العلم الأيوطي ،
وقال أنه توصل إلى أشياء لم يتوصل إليها أحد من قبل .. ثم
تواضع قائلاً :

— أحمن أنك أحد المعجبين بي

— أنا مؤمن بالعلم يا سيدي

— هذا أمر يسعدني

— ومن رأي أن نزرع حب العلم في نفوس الناس منذ
طفولتهم حتى يتحول إلى ساوك في حياتهم وليس إلى مجرد كلام
للتظاهر

— رأي سديد

— وقد قرأت في كتابك أن الأرض تدور في اتجاه ضد
دوران الساعة

— هذا مكتوب في الكتاب

— ولما كان هذا أمراً عجيبياً فقد جئت للتأكد منك

— هذا مكتوب

— لكن أحد الناس شككني في احتمال أن يكون هناك خطأ ما

انقلبت صفته ورمقنى فى غضب :

— هل أنت من أتباع الدكتور الحمار ؟؟

— لا أعرف أحدا باسم الدكتور الحمار !

— حقا ؟؟

— بالحقيقة لا أعرفه

— إنه ذلك الجاهل الجهول الذى يدعى العلم أكثر منى ،
وينافسنى فى تأليف كتب العلم الأيوطى .. هل أرسلك لتشويه
سمعتى وسمعة مؤلفاتى ؟! هل أنت قريبه ؟؟

— اطلاقا .. لا

— صديقه ؟

— ولا صديقه

— فأنت أحد مأجوريه

وقبل أن أنكر ذلك أتى بحركة قام على أثرها الكلب بالتحفز
ضدى وظل يزوم فى وجهى .. شعرت بالخوف لكن الكرامة
فى فمه طمأنتنى ، قلت :

— سيدى المؤلف ، لا أطلب أكثر من الإجابة بنعم أو لا ..

هل أنت متأكد من أن الأرض تدور ضد الساعة ؟؟

— هذا مكتوب

— فهل أنت متأكد منه ؟؟

نهض وأحضر كتابا ضخما يبدو أنه إحدى الموسوعات العلمية وقالى :

— ستري أننى على صواب

● كلب المؤلف يتدخل فى المسألة :

... وظل يبحث ويقلب برفزة ثم بحيرة وعصبية ، ولا أدري إن كان قد وجد الجواب أم فشل فى ذلك ، إذ كف عن البحث زهقا .. فسأله :

— هل قرأت شيئا ؟؟

رد فى غضب :

— قرأت ما قرأت أيها البلطجى ، ولا شأن لك به .. حتى لو كانت الأرض ساكنة !! تدور أو لا تدور !! ما شأنك أنت بهذه الأمور المعقدة !!

ثم حرص كلبه ضدى فوقفت مزعما الفرار ، فقفز بثقله نحوى وأرقدنى تحتته وظل يحاول نهش جسدى لولا الكمامة .. حاولت النهوض لكنه كان مدربا .. فجاهدت فى مقاومته زاحفا

ناحية باب الحقيقة ، بينما المؤلف يتوعدني مقسماً برئيسنا الدييم
راعى العلم بأنه فى المرة التالية سيرفع كرامة الكلب . . ورأيت أحده
رجال « الهؤلاء » فى الخارج فاستنجدت به لخدمه وقف يتفرج على
الموقف شغورفا ، ولم يظهر أى تعاطف معى ، وإنما أبدى عظيم
إعجابه بمهارة كلب المؤلف . .

● البلف وقراءة الكف وأمور أخرى :

وضع الجرسون أمامى فنجان القهوة الثانى ، وللمرة الثانية نظار
إلى مسترياً . . كانت ملابسى متسخة مزقة من شتالب الكلاب الفظيع ،
وربما ظننى الجرسون متشرداً لا أنملك سقما أنرب ، لذلك دفعت
حسابى وتعمدت ترك بقشيش كبير ، أخذه ولم يشكرنى ومضى . .
أخذت أركز ذهنى لأفكر بطريقة منظمة ، واستغرقت فى ذلك
وقتاً لا أعرف قدره تماماً . . إلى أن تبعت على ورقة تلقى أمامى ،
قرأتها فوجدت بها ما بلى : « الواقف أناسك قارىء كف وفنجان
متخصص ومنجم — يقرأ الطالع ويحسب المستقبل — الواقف أناسك
هو أول عراف يحسب الغيب على أسس علمية — شهادات من الخارج
ودراسات متخصصة من بلاد نائية »

نظرت إليه فوجدت ملابس رثة فوقها حلقة مشعشة تحيط بوجه
شاحب وشفاه متشققة لا توجد إلا مع معدة خاوية . . أعطيته
بعض المال القليل كمساعدة فانصرف داعياً لى . .

وعدت أحاول التركيز في التفكير المشتمل الذي كنت قد نويته . . . هر بي ماسح أحذية ثم أحد المتحاذين من بعد بائعة المتاحجات فمتسولة صغيرة تم ضرير ثم رجل يحدث نفسه بصوت مرتفع — ولم يكن هناك من يتسم — ثم وضع رجل أمامي ورقة صفراء قرأت فيها ما يلي : «حبيب الأزواج — مقوى و مفيد يزيل الرطوبة أكيد . . من إحتليل المساج وجماعة أعشاب لا يمكن الحصول عليها — يمنع ارتقاء الأعصاب عند المشي و الشباب — يساعد في الواجبات الزوجية ويشعر آخذه بلذة لم يسبق لها مثيل — مسجل بوزارة الصحة والحياة الأبوية تحت رقم سرى — فاطمب العلية من موزع الإعلان قبل نقاده »

أعدت إليه الإعلان مشمرا ، وعندما انصرف لاحظت عن قرب رجلا بعين جاحظة يبحث نحو فكرت كل شيء ونهضت . . وبعد أن ابتعدت نظرت خلفي فوجدته يتبعني فقرر رأي أن أففده أخرى ، موقنا أنه أحد المفلولين . . .

وأخذت أراوغه في منحنيات المدينة حتى اختفى تماماً من ورأى . . . لكنني فجأة وجدته أمامي (قد يكون واحدا آخر شبيهه) . . فجريت بأقصى سرعة وظللت أجرى حتى سمعت هديرا صاخبا يبدو وكأنه صادر من آلاف الحناجر الصارخة ، ففرحت وقلت أستجير بهم ، وتوجهت نحو الصوت . .

● الزمن الضائع :

وجدت الأصوات الهادرة تنبعث من داخل بناية أسمى عملاقة شبه دائرية ، كأنها بيت الغول . . وكانت هناك سيارات كثيرة من شتى الأنواع والألوان وشاحنات ضخمة مكتوب عليها : « شرطة أيوط — فرق تفريق المظاهرات المعادية » . .

بقلب واجف دخلت ، وكلما ارتفع المدير البشرى في أذنى كلما تراقصت أحاسيسى . : يمكننى الاحتماء بالناس — هكذا فكرت — وإن وجدت فرصة شرحت لهم الأمر كله وربما تمكنت من إقناعهم .

ثم بدأ يتكشف لى تدريجياً فإذا بى فى ملعب لكرة القدم !

تقدمت مذهولاً إلى وسط استاد . . عشرات الألوف من المتفرجين المنقسمين إلى جانبين ، كل جانب يصيح فى وجه الآخر ! . . ورجال الأمن متحفزون بالدروع فى مواجهة المدرجات . .

تنبه إلى اللاعبين واحداً تلو الآخر ، ثم الحكم وكان ممتقع الوجه ، ثم وجدت نفسى فى مواجهتهم . . ويبدو أن المتفرجين تنبهوا كذلك إذ بدأ الهدوء يخيم تدريجياً ، وجاء صمت رهيب أصابنى بالرعب . . وكل العيون تنظر نحوى !!

تمالكت وبدأت أتكلم ، وللأسف فقد كان صوتى ضعيفا ،
كنت فى حاجة إلى مكبر صوت كى يصل صوتى إلى هذه الألوف
الغفيرة . . . وكنت أتكلم بالصوت والإيماءة ، وأشرت إلى ساعتى
أكثر من مرة ثم إلى رأسى ، ثم عدت أركز الإشارة إلى الساعة
فعادت الجماهير تزوم ١١ . . . وحدث أمر عجيب : أحد الجانبين
هلل مؤيدا وهاتفا لى ! فلما توجهت نحوهم سعيدا لأشرح لهم كل
الأمور إذا بالجانب الآخر يزوم ضدى ويلقى نحوى بأكوام كبيرة
من الطوب وقشر البرتقال وزجاجات الكازوزة الفارغة ١١

وعند هذا الحد جريت هاربا . . إلى الشارع ، وأنا فى حيرة
من أمرى ومن أمرهم ١١

● جاحظ العينين يفسر بعض ماغمض من الأحداث السابقة :

ظلت أجرى وأجرى مبتعدا عن بناية الأسمت الهائجة بالأصوات
البلهاء ، داخلا إلى شوارع تحيطها البنايات العالية من كلا الجانبين ،
إلى أزقة ضيقة خالية من الناس . . . حتى اطمأنت إلى أننى لم أجد
مطارداً ، وكنت ألث فوقفت أستريح وأغمضت عيني أريجهما ،
لكننى تنبته على سماع أنفاس خافتة عن قربى ، رغم اننى لم أسمع
خطوات تقترب ، فتحت عيني . .

كان جاحظ العينين (أو بديله) يرسم ابتسامة لزجة . : قال :

— لقد أثرت فتنة بين جمهور الكرة وحاولت دفعهم إلى التفكير !!
حملت إليه . . قال :

— هذا اتهام لك : لقد أحدثت وقعة بين الكرويين وهم
كائنات مسالمة لا تبغى غير التسلية التي لا تجهد الذهن .

وأخذ يشرح في رتبة — والعهد عليه — أن المباراة كانت
قد وصلت إلى نقطة حرجية ، وكان الحكم في حيرة من صحة إحدى
الرميات وكان يتشاور مع مساعديه إن كان هناك وقت ضائع أم لا
. . والذي حدث في تلك الآونة أن دخلت أنا وظللت أشير بأصبعي
إلى ساعتى ، وإشاراتي هذه هي التي جعلت الجميع يصمتون ظناً
منهم أنني أدلى برأي في مسألة الوقت الضائع . . لذلك هلك الجانب
الذى يرى أن إطالة وقت اللعب في صالح فريقه ، وانهاك الجانب
الآخر على السبب . . وبعد هروبي تطاول بعض من هنا على بعض
من هناك وقامت معركة عظيمة أدت إلى إصابة أحد كبراء الأمن
بحجر في أنفه فانبجست . .

ثم وضع الجاحظ أصبعه في وجهى :
— سوف تتحدث صحافتنا الحرة غدا عن فتنة بين أهالى الكرة
أنت مشيرها !

● وشوشة الحبيبة :

كنت بشقتى وقلت أتوب عن الفضول وعن حث الناس على التفكير .

أغلقت الباب جيداً وتأكدت من جميع النوافذ . وبعد أن
أطفأت جميع الأنوار رحت أحاول نسيان ما أصابني من عنت وتعب ،
بتذكر وجه حبيبتي واسعة العينين . . فبدأت أسمع همساتها الرقيقة
في أذني ، توشوش فيها بكلمات الحب ، وتعطيني شفيتها في قبلات
راغبة دافئة . . وشيثاً فشيثاً ومن بين الظلام تجسدت لي ، بابتسامتها
الساحرة ذات الغمازتين ، وجاءت إلى جوارى ورحت أفك ضفيريها
لينسدل شعرها طويلاً رائعاً فوق كتفيها الناعسين ، وأخذتها في حضني
وصرنا نتقلب معاً حتى انتشينا وتهادينا في نوم هادئ . قرير بعد أن
أطفأنا النور . . .

● الجاحظون :

. . . لكنني تيقنلت فجأة على اللمة مضاعة . . وبعد أن زالت
غشاوة النور المباغت فوجئت بسبعة من رجال المؤلاء يحيطون
بسريري — أظهم ثمانية — وكان الوقت ليس كالنهار وليس كالليل . .
وكانوا جميعاً من ذوى العيون الجاحظة الذين قال أكثرهم جحوظاً :

— باسم رئيسنا الديجم العادل ستأني معنا

جلست غير مصدق . . فكرر قوله السابقة . . وقلت له :

— هل أنا متهم يا سيدى ؟!

— فلتنهض معنا

احتججت :

— بأى حق تدخلون دون استئذان ١٢

— إن لم تنهض أخذك قسراً

— فأى تهمة موجهة لى ١٢

— لا نعرف . . الرؤساء يعرفون

لم اتحرك من مكاني . . قال فى عجب :

— لماذا أنتم قلقون هكذا أيها الشباب ١٢ .. لكل إنسان تهمة ،
ولكل تهمة أدلتها .. دع القلق وانهض معنا وصدقنى بأن لكل إنسان
تهمة وأن لكل تهمة أدلتها .

● قالوا قديماً :

نهضت وفتحت النافذة فلم يمانعوا .. وفوجئت بجو شاق لم أعهده
من قبل : ضباب ثقيل يخفى السماء ، رطوبة كثيفة بللت ملابسى ..
بالكاد رأيت الشارع ، ولدهشتى لم أجده نفس الشارع الذى ألفته ،
كان مغايراً تماماً خالياً من كل دلائل الحياة ، تتوسطه على غير
العادة بركة طين يتمرغ فيها حمار أجرب ١١ وعند مدخله سيارة
المؤلاء .. والمنازل المقابلة ليست منازل الأمس ١١ ..

احترت فى نفسى : لا أعرف هذه الجدران ، ولا رأيت من
قبل هذا الشارع ولا هذا المناخ القاتم ، ولا هذه الغرفة .. فأين
أكون ١٢

شعرت بكف تهزنى من كتنى . . ورأيت عيناً جاحظة واحدة
من أسفلها ما يشبه الفم وسمعت صوتاً ينهى :

— لا تتركاً ولا تضع الوقت . . ألم تسمع عن الحكمة القائلة بأن
الوقت من ذهب ١٢ . . وراءنا غيرك .

وكنت قد سمعت عن هذه الحكمة فى المدرسة قديماً
فتوجهت معهم .

الفصل الثانى

الرجل المضغوط

● غرفة الرجل المضغوط :

استطعت أن أحصى في الغرفة سبعة تلفونات ذات ألوان مختلفة، وكانت هناك أزرار أخرى من أما كن شتى . . ورغم وجودى منفردا بالغرفة إلا أننى كنت اشعر بأن هناك عيوناً كثيرة تراقبنى . . تفحصت السقف والجدران — كلما رفعت رأسى وجدت صور الديبجم تغطي الجدران — والأثاث فانحر . . لكنى مللت من كل ذلك . .

مر وقت طويل ثقيل وأنا وحيد بالغرفة . بين الذئق والحقن . . ثم بين السأم والضيق حتى شعرت بالصداع وبأن الدماء ستتفجر من أنفى . . ثم فتح الباب بهدوء ودخل رجل مضغوط القامة بنظارة سوداء، حيائى فى ادب جهم ثم سار نحوى المكتب فلم يصدر عن حذاءيه أى صوت . . وعندما جلس توقعت أن يغوص معظم جسده خلف المكتب ، لكنه بدا وكأنه طويل القامة ، وأدركت أن السر يكمن فى ارتفاع المفعد الذى عوض انضغاط قامته . . وحيائى مرة أخرى.

عندما وضعرتى فى هذه الغرفة كنت ثائرا غاضباً أريد أن أعرف سر إحضارى قسراً إلى هذا المكان . . ولما طال الانتظار صرت حائقاً على التماذى فى أهمالى وغاب عن بالى ما سبق ان رتبته من عبارات الاحتجاج والاستنكار . . ثم زاد الانتظار فجاءنى الملل وكهس على النوم وصرت على استعداد لفعل وقول أى شىء للخروج من هذا المكان السقيم بارد الأثاث . .

خلع الرجل المضغوط نظارته السوداء فاكشفت جحوظ-عينيه ،
وذكرني بالهؤلاء الذين اقتحموا على نومي وأحلامي ، وعلى الفور
استشطت غيظا وعاودني الغضب ودبت الحمية في عروقي ، فاستجمعت
شتات نفسي واعتدلت له متحفزا :

— سيدى باى حق تحضرونى هنا وأنا مواطن شريف ١٢

ارتدى نظارته وقال :

— أبداً فأرحب بك . . أى مشروب تطلب ٢٢

— لا أطلب إلا معرفة الهمّة الموجهة لى . .

لاحظ غضبي الشديد ، فأشار بكفه كى ألزم الهدوء وهو

يهمس :

— اسمع لى أن ألفت نظرك إلى أمر هام من أمور الحياة والصحة

قد تجد فيها عبرة ما . .

● عبرة من عبر الحياة :

ثم ضغط على زرار أمامه فانطفأت الأنوار وانزلت أمامي
شاشة صغيرة رأيت فوق سطحها عرضا سينمائيا قصيرا ، لشاب
قلق جدا ، يتقلقل فى جلسته آخذاً أوضاعاً عصبية قارضا أظافره
أحيانا ، وفى لقطات وجهه المكبرة رأيت عضلاته تتقلص بشكل
غريب شوهت سمته إلى صورة غير مألوفة !

انتهى العرض وقال المضغوط :

— ألم تلاحظ أمرا هاماً ؟؟

— لاحظت أن هذا الرجل يشبهني ، فقد كان جالسا على هذه الأريكة وفي نفس هذه الغرفة . .

— إنه أنت بالفعل ، وهذا الشريط قد التقط لك أثناء انتطارك . . لكن الغضب والقلق أفسدا ممتلكاتك وجعلنا منك يبدو في هذا الشكل !! وهذا يعلمك أن لا تغضب أو تقلق !

لكنى رغم هذه العبرة انتمجرت فيه طالباً معرفة تهمة . .
فاستدار بمقعده الدوار وأعطاني جانب جسده . .

● متى يتبدل سلوك المواطن ؟؟

. . وبعد صمت ثقيل قال في تباطؤ :

— حتى الآن لا نعرف ما هي تهمة على وجه التحديد
وقبل أن أعلق قال :

— لكن من المؤكد أنك متهم . .

ثم شرح الأمر :

— لاحظنا أنك طوال الأيام الماضية كنت تأتى بتصرفات غير
عادية ، والمشهد أنك قمت بتحركات مريبة : وقد تجمعت لدينا

معلومات كثيرة من « عيوننا » وهم كثيرون ومختبثون في كل شبر من أركان أربوط الآمنة ، ومن « آذاننا » وهم أوسع انتشارا لصق أبواب البنابات وتحت أسرة النوم . . . وجميع هذه المعلومات -- لا تقاطعني من فضلك -- وجميع هذه المعلومات تفيد بأن ساوكل قد خرج عن حدود المؤلف . . . وبحكم خبرتنا في حماية الأمن فنحن نعرف أن المواطن لا يتبدل سلوكه إلا في حالتين : أولا عند فشله في الحب ومروره بأزمة عاطفية حادة يصعب عايد حلها أو مواجهتها ، وثانياً عندما يرسخ في ذهنه القيام بعمل غير مشروع ، أى يكون في نيته ارتكاب بعض المتهاتات ضد دولة أربوط الفتية وضد زعيمها اللئيم المحبوب . . لا تقاطعني من فضلك . . .

● الاتهام :

. . صحت ثم شرب بعض الماء وعاد إلى صوته الرتيب :

-- بحثنا عن حالاتك العاطفية فعرفنا أنك برىء منها فأنت ناجح مستريح مع الجنس اللطيف ، لك عشيقه شمريه اللون واسعه العينين ممتلئة الشفتين بصفيرة طويلة ، طولها ١٦١ سنتمرا ، ووزنها حتى الأمس ٥٨ كيلو جرام ، تظهر لها غمازتان في خديها عند الابتسام . . وإليك بعض صورها . .

ثم مد يده بمظروف ملئ بالصور ، جميعها لحبيبتى ، سائرة في الطريق أو منهمكة في عملها أو جالسة في المترو أو في بيتها . .

حملقت نحوه جزعا ، فضحك في لزوجة ملوحا بمظروف آخر
مغلق وصوته يفح كالثعبان :

— وهنا صور لها معك عارية فوق سريرك في أوضاع غرامية
مثيرة . . . وعلى فكرة فان في روعة جسدها وفي بشاشة وجهها
الدليل القاطع على تمتعك بلذوق ممتاز وحسن اختيار موفق . .
عزيزى أنت ذواقة للجمال من الطراز الراقى . . وعلى فكرة فان
ذوقك في الجنس اللطيف يكاد يطابق ذوقى إلى درجة مذهلة !!

منعنى انفعالى من النطق بأية كلمة .. فأعاد الصرير والمظروف
إلى مخبئها ، ثم اعتدل مستمراً في كلامه :

— وعلى ذلك فان الاحتمال الأول وهو أن تكون متورطاً
في أزمة عاطفية حادة لا ينطبق عليك . . وتصبح متهما بالاحتمال
الثانى ، وهو أنك تنوى القيام بعمل ضار من أعمال الرعونة والطيش ،
وهذا ضد القانون .

تماسكت بصعوبة :

— كيف تعرف ما يدور في ذهنى ونيتى حتى تماسبنى عليه؟!

— أعتقد أننى عرضت عليك أفكارى مرتبة ترتيباً منطقياً . .

ليس بإمكانك أن تنكر أن تفكيرى معك كان علمياً . .

— وأنا أرفضه رفضاً كاملاً

— هذا حقك . . وأنا عن نفسي غير متمسك به ، معروف
عنى المرونة . . ولكن أليس من واجبي أن أمنع الجريمة قبل
وقوعها ؟؟

—

— ألا ترد !!

تماسكت . . قال :

— نبدأ خطوة بخطوة : الوقاية خير من العلاج ، أصواب
هذا أم خطأ ؟؟

— صواب

— فيكون من الأجدي أن نمنع الفرد من الانحراف بدلا من
أن نمنسكه بعد ارتكابه الآثام . . أصواب هذا أم خطأ ؟؟

— الكلام في حد ذاته صواب ولكنه لا ينطبق على حالتنا
هذه . . لا يمكنك معرفة ما يدور في ذهنى . .

— ومع ذلك فلننس كل ذلك ، واعتبر أنني لم أقله لك ،
معروف عنى المرونة . . وأنت حر ولك مطلق الحرية ، وكل
الشرائع تكفل لك هذا ، وما نحن إلا منفذون . .
نهضت منصرفاً :

— أشكرك

لكن صوته أفر :

● إجراء شكلي لا أكثر :

قال الرجل المضغوط :

— انتظر .. إجراء صغير آتخذه معك وتنصرف إلى بيتك عزيزا
مكرما ، وإلى حضن حبيبته المثيرة التي أحسدها عليها ..

جاست : : ظل صامتا ، لكنى سمعت حفيفا غامضا من قربى ،
توترت تماما ثم أدركت أنه من هزات ساقى العصبية .. قال :

— وسنة تهي من هذا الإجراء الشكلى بأسرع السبل ..

● براءة الماضي وعذاب الحاضر :

سألته عن هذا الإجراء الشكلى فقال :

— لا تؤاخذنى : : العمل هو العمل ، أصواب هذا أم خطأ؟؟

— صواب هـ . وبعد ؟؟

— علينا أن نتأكد من أنك برىء فيما مضى برىء الآن !

تلملت :

— وكيف يكون ذلك ١٩

— لنا ملفاتنا الخاصة وسجلاتنا وصورنا المأخوذة للمجرمين
السابقين من شتى الزوايا وفي غاية الدقة ، ولا تؤاخذنى إن بحثنا
فيها للتأكد من أنك لست متبها فهل تسمح ٢٢

— لكم هذا . . ولكن أسرعوا

— فعلنا معظم ذلك بالفعل أثناء انتظارك الطويل ، فلم نجد عليك
آية شائبة . .

— حسنا . . الوداع

— دقيقة لو سمحت ، فلقد وجدنا بين آلاف الصور التي نقتنيها
صورة لأحد المجرمين قريبة الشبه منك

— ما اسمه ٢٣

— دعك من الأسماء فن السهل تغييرها

ولما رأيت الصورة أصبت بصاعقة إذ كانت لرجل أعور !
. . صرخت مستنكرا :

— لكن هذا أعور

— دعك من هذا أيضا ، فأنت تعرف أن العلم قد تقدم في
جميع الفروع ، ومنها علم الماكياج والتنكر

قلت مغتاظا :

— وبهذا المنطق فمن الجائز أن تكون هذه الصورة لك . . :

ضحك وقال :

— مرح أنت ! ومرن أنا !!

● حرية الدياجم :

وقفت صارخا :

— أيها السيد كفى أهانات ، كفى !! .. أطلق سراحى

.. عزيزى .. أرجوك ، لا تنس العبرة التى قلتها لك . .

هدىء نفسك ، أنا نهوى الحرية جدا إلى درجة أننا كثيرا ما

فرضناها على الأهالى قسرا .. فاطمئن ، وقر عينا ..

● لكل رجل زرار : حكمة أيبوطية :

.. ثم وقف المضغوط وضغط على أحد الأزرار الكثيرة ،

فدخل على الفور رجل حاد النظرات فى ملابس مدنية يحمل حقيبة

سوداء .. تقدم بالتحية ، فأمره أن يقف قرب الباب ثم استدار إلى

مبتسما وهو يعود إلى الجلوس فوق مقعده الدوار :

— سيكون هذا الرجل مندوبيا لى ، وهو لطيف .. أليس

كذلك ؟

— أمر لا يهمني

— وشديد الأناقة أيضا

— لا شأن لي

— ولتكن واثقا أنه بالإضافة إلى ذلك فهو خفيف الظل
لطيف المعشر

صار الأمر لا يطلق فعلى الدمى نافوخى فلم أقدر على الكلام..
وفى هدوء عاد يقول :

— يزعم بعض المحققين السذج بأن الصور لغة عالمية لا تكذب،
ولكن هذا خطأ شديد . . فلقد اتفقت أنت معي ترا بأن هذه
الصورة التى أمامي الآن ممكن أن تكون لك أو لى أو لهذا الواقف
عند الباب . . أصواب أم خطأ ؟؟
— خطأ

— هذا احتمال واحد ، الاحتمال الثانى أنه صواب . . فكل أمور
الحياة يمكن أن تكون خاطئة وفى نفس الوقت صائبة . .
— فليكن هذا أو ذاك ، خلصنى وحدثنى عن هدفك
● وحملك أو بصحبة الأنثى الفاتنة :

تقدم مندوبه الواقف عند الباب منى وأوقفنى بينما المضغوط
يقول فى لهجة باترة :

— سيأخذك هذا الرجل مندوبا عني في طواف سريع إلى جميع
مخافر الشرطة المنتشرة في أنحاء أيبوط

أمسكني المندوب من معصمي . . قال المضغوط :

— وسوف يضمن مندوبي الأنيق هذا أن يتم لك في جميع هذه
المخافر عرض قانوني للبت إن كنت مطلوبا في إحداها أم لا . هـ
تعرف ان الاتصالات الشخصية أجدى وأسرع . .

وقبل أن أنطق جرتي المندوب صوب الباب . . ابتسم المضغوط :

— وفي حالة ما إذا كنت غير مطلوب في أى منها فأنت — كما
ترعم — حر شريف ، ومن حثك الذهاب إلى أى مكان يخطر لك
وحالك أو بصحبة الأنثى الفاتنة التى أحبك عاها . . وبذلك
تتحقق العدالة ونكون قد حميناك وحمينا الأهل الشرفاء . .
أليس كذلك ؟؟

● الهوة في كل خطوة تالية :

جرتي المندوب غصبا وأنا أكاد لا أصدق . . إلى أن وجدت
نفسى في ممر خارج الغرفة ، ظل ينحدر وينحدر حتى صار
سردابا يردد صدى خطوات المندوب ويجسد أنفاسى المرتبكة ،
فاقشعر كل بدنى . . واختفت معظم فتحات الإضاءة ، فتملكنى
دوار مفاجئ جاءنى بصداع ثقيل ، وصار السرداب معتما تماما ،

والمندوب يدفعني أمامه . . . فارتعشت قدماي وظلمات أثوقع الهوة
في كل خطوة تالية .

ثم دخل في روعي أنني أسير بقدمي إلى أعلى ورأسي مدلى
إلى أسفل ، تخيلت نفسي مقلوبا في هذا الوضع ورأيت أنه غريب
مضحك فضحكك وردد السرداب ضحكاتي ، لكنني بعد أقل من
البرهة بدأت أشك أن صهوت هذه الضحكات هو صوتي أنا .

الفصل الثالث

طواف المخافر

● جزء مما حدث في المخفر الأول :

بين الدوار والضيق وفي بحر الظلام ظللنا نتلمس طريقنا ،
حتى لاحظت لنا مساحة من الضوء الأزرق الخافت تشكل فتحة
مستطيلة بين درفتي باب موارب .. دخلنا في صمت لنجد الركود
ومسوت أنفاس خافتة ، وشرطى يغط في النوم سائدا رأسه فوق
ترابيزة المخفر ، ومن فوقه صورة « الديجم » .. فتح عينه اليمنى
ثم أنحفضها وزام فسأله المندوب :

— هل تعرف هذا المواطن ؟؟

ودون أن يفتح عينيه :

— لا

أهو متاوب لديكم في أية تهة ؟؟

— لا

.. أواثق من كلامك ؟؟

— نعم .. أتركني

ولما طالب المندوب منه أن يكتب هذا الكلام ويوقعه ويمهره
بختام المخفر الرسمي ، أفاق الشرطى وظل يتفحصني ، نهض وأضاء
عدة لمبات إضافية وحام ودار حولي ولم يبد عليه أنه يعرفني

فجلس ليكتب « شهادة براءة » لى .. لكنه قبل أن يوقع هـ
تردد وقال للمندوب :

— توقيعى وحده لا يكتفى ، تعرف هذا ؟
سألته :

— ألسـت مسـئولا عن هذا المخـفر ؟؟

— لا تسأل أنت .. وعلى كل حال فأنا لست وحدى هنا
يشاركنى ثلاثة زملاء آخرين ولا بد من الحصول على توقيعهـ
قبل مهر الشهادة بخاتم المخفر ..

— وأين هم الآن ؟؟

— واحد يأتى بعد نوبتى ، والثانى بعد انتهاء نوبة التالى لى
والثالث بعد التالى للتالى لى .. فلكل واحد منا ربع يوم

ثم وقع .. وقال لى :

— بتوقيعى هذا فأنت برىء فى ربع اليوم الواقع فى
اختصاصى .. ناقص إثبات براءتك فى ثلاثة أرباع اليوم الباقية .

وعاد يركن رأسه فوق الترابيزة لينام ، فسأله المندوب عن
مكان نبيت فيه .. أشار له إلى أريكة قريبة ، أما أنا فقد فتـح
بابا ثقـيلا أدخـلنى منه وأغلقه من ورائى ..

● في الحبس :

.. بعد أن تعودت عيناى على الضوء الخافت تبين أنى
فى غرفة الحجز ، أدركت ذلك من كثرة المحجوزين داخلها ، من
شئ الأعمار .. منهم من استلقى بجوار الحائط ومنهم من جلس
محاكما ، وعجوز واقف فى صمت قرب الكوة الحديدية ..

حدثت نفسى أن أكون حذرا وأنا بين أربعة جدران مع
عشرات من المجرمين ، ولعنت فى سرى جديع هؤلاء الذين
أحضرونى إلى مثل هذا الوكر الموبوء ..

تراجعت خطوة فكدت أتعثر فى كومة ما شتلفى ، تلفت
متحفزا فرجدت أسفلى وجهها لصبي ينظر لى من عيني ملئتين
بالدموع وقد تقرص متكوما يرتعش ..

انزويت قرب الباب وأنا أحلق إليه فسمعت عن يمينى من
يقول :

— لم يكف عن البكاء منذ جاءوا به ، فشلنا فى تهديته

— ما تهمته ؟؟

— مظلوم .. مثلى تماما ..

هتف الشيخ الواقف عند الكوة الحديدية :

— الجميع تقريبا مظلالم ، وكم فى الحجز مظلالم !

لكنى حذرت نفسى أن ألزم الصمت وأن لا أدخل مع هؤلاء
المجرمين فى حديث ، لأنهم خارجون على القانون بلا شك ، وكل
من فى الحجز يدعى أنه مظلوم ..

وبرغم رطوبة الأرضية ورغم الهواء الراكد العطن — أو ربما
بفعل كل هذا — فقد غفوت فى النوم لعاءة ثوان أو دقائق ..
ولا أدري ما الذى جعلنى أستيقظ عند الفجر هامسا لنفسى :
لكننى فى الحجز الآن رغم شدة براءتى ؟

● أوصال البراءة :

جاء الشرطى الثانى وتفحصنى مايا ثم وقع على وثيقة البراءة
فصرت بذلك بريئا فى نصف يوم .. وبعده بست ساعات أخرى
جاء الثالث ووقع فصارت براءتى لثلاثة أرباع اليوم .. وبعده
ذلك مرت ست ساعات أخرى بطيئة قاسية ، اكتملت لى بعدها
براءتى .. ومهرت الورقة بخاتم المخفر وتسلمها المندوب ، الذى
وقف على عتبة باب الخروج ثم قال لى :

— ليس هذا إلا مخفك الأول ..

● نظرا للنجاح الساحق :

سألت المندوب عن عدد المخافر التي يجب أن أعرض عليها
فقال :

— جميعها

— كم عددها ؟؟

— بالضبط لا أعرف ، يتغير عددها كل يوم ، فكلما تأكد
نجاح المخافر الموجودة كلما أقيمت مخافر أخرى جديدة ! .. وتلك
هي رأس الحكمة ..

دهشت وفي ذهني ليلة الأمس المزعجة وأرضية الزنزانة
الرطبة ، فقلت :

— لعلك ارتحت في النوم ليلة الأمس ؟؟

— لا بأس

— أخشى أن يكون نومك فوق الأريكة الجلمدية لم يكن
مريحاً !!

أشاح دون اهتمام .. ثم فهمت منه أنه سينال عن كل ليلة
يقضيها في رحلتنا هذه ما يعادل أجر يوم إضافي وذلك كبديل
مبيت ، ولكنه سيغام في المخافر من باب الاقتصاد .. قال :

- وبمجموع هذه البدلات التي سوف أنالها بسببك سوف
يمكننى قضاء شهر فى أفخم مصايف البحر مع امرأة مشيرة شهية..
قلت له أن ذلك يسعدنى .. لكنى فى نفسى خشيت أن
يتعمد إطالة مدة تجوالنا جربا وراء المازيد من البدلات المالية ..
وسألته فى حذر :

- كم تظن عدد الايام التى تكفى بدلاتها نفقات شهر مصيفك
مع المرأة المثيرة الشهية ؟ ؟
فكر قليلا ثم رفض الإجابة قائلا بأنه يأثف عن الحديث فى
المسائل المادية الزائلة ..

● ليس إلا :

فتح المندوب حقيبته السوداء ، وضع فيها ورقة البرادة
الجديدة المدهورة بشعار المخفر الثانى فانضمت إلى الورقة
الأولى .. وقال :

- وهذه ليست إلا براءتك الثانية

ومضينا من حى إلى حى .. ودخانا من أبواب متشابهة
لنركم أنفى ذات الرائحة ، ولأبيت مع بعض المظالم .. ثم لنخرج
منها ثانية ، وليتوقف المندوب على عتبة كل مخفر ويفتح حقيبته
السوداء فى حرص شديد ويضم ورقة براءتى الجديدة إلى الورقات
السابقة ..

تجشأ وقال :

- ليست هذه إلا براءتك الثالثة ..

أغلق الحقيبة وقال :

- وهذه ليست إلا براءتك السابعة ..

وفي المخفر العاشر تم عرضي على بعض المدنيين أيضا وذلك بالإضافة إلى ضباط الورديات الأربعة . . وفي المخفر التالي شد أحدهم شعري لتأكد من أنه حقيقي ، وتحسس أحدهم صدري خشية أن أكون امرأه في زي رجال رغم ذقني وشاربي الطويلين ! ... وفي ثلاثة مخافر على الأقل تم توقيع الوثائق دون فحصي ، والذي تلاهم ، فعل المثل قائلاً أنه يثق في دقة الثلاثة السابقين ..

ابتسم المندوب :

- وليست هذه إلا براءتك رقم ٢٣

وكلما زاد الرقم انتعشت نفسي وزاد سروري من دنو ساعة الخلاص من هذه الورطة الوضيعة ، وتراقص أمل في اقتراب العودة إلى حضن حبيبتي واسترداد حريتي . . ولعنت دوران الأرض ودوران الساعات ودوراني أنا على المخافر الأبيوطية القذرة ..

وفي نفس الوقت كنت ألاحظ تهالي وجه المندوب
زيادة لياليه المستحقة لبدلات السفر وبعد أيام وعلى عتبة
المخافر وقبل أن يغلق حقييته ، بادرت به أنا :

— وهذه ليست إلا براءة رقم ٣٩

فبرقت عيناه ، ثم سرعان ما وضع قناع اللامبالاة..
في إلى المخفر التالي وترتيبه الأربعون .

● بعض الخواطر حول رقم أربعين :

ونحن متوجهون إلى المخفر رقم ٤٠ أخذت أتذكر ..
الرقم عند معظم الشعوب ، فهناك على بابا والأربعين -
وهناك الغرفة رقم ٤٠ في القصر المسحور والمحرم دخر
وهناك أيضا الاحتفال بمرور الأربعين يوماً على الوفاة ..

قال المندوب :

— بهذا المخفر سوف نترك هذه العاصمة ونطو
المخافر المنتشرة فوق أراضي أيبوط المترامية ..

ولما تحرك بنا القطار الضخم بدأت المنازل تتراجع
بيوت ضخمة يسكنها أناس في ثياب عصرية وأفكار عتيقة
الخارج براق والداخل كهف له سراديب مظلمة معنكية .

فوجئت بالمندوب يحذرنى ؟
— لا تجدف ..

فنظرت إليه فزعا ، ولم يكن يتأمل المناظر الخارجية
ولا تلك البيوت الضئيلة التى أخذت تتباعد أيضا . . لقد قام
بمثل هذه الرحلات مرات عديدة ولا بد ، ولا شىء جديد عليه
إلا أن .. سألته :

— ما رأيك فى الذين صحبتهم من قبلى ؟؟

فرد فى اقتضاب :

— جميعهم أمثالك هـ

وسكت .. فتذكرت أمرا غريبا مر على فى محطة العاصمة :

● خلاصة الأمر الغريب :

. . فعندما كنا نتجه إلى رصيف قطارنا لا حظت تواجد
أزواج كثيرة من الرجال ، وبعض أزواج النساء ١ ١ . . رجلان
رجلان أو امرأتان امرأتان ١ ١ . . وعلى جميع الأرضفة التى تتفرق
قطاراتها إلى أنحاء البلاد المترامية ، فماذا يعنى هذا الوضع
المعكوس ؟ ١ ٢ . . رجل مع رجل وليس رجل مع امرأة ؟ ١ ٣ . .

واللحظات شطح خيالي إلى وجود علاقات جنسية مثلية ١١ ..
فهل صارت تلك هي القاعدة بحيث يرافق الرجل ذكرا مثله
وتمتطي المرأة أنثى من نوعها ١٢ ؟

لكن زحمة المكان وهرولتنا أطاررت الموضوع من رأسي إلى
أن تذكرته ! آنية ١١

وبعد وقت حدثت نفسي بأني ومرافقي زجلان فهل معنى
ذلك وجود علاقة جنسية بيننا ١٢ .. . وعند هذا الحد تذكرت
أمراً آخر أصابني بصداع ثقيل : تذكرت أن مرافقي كان يحبي
أحد أفراد كل زوج ويتجاهل الآخر ١ .. . كذلك فعل مع النساء ،
كان يوميء رأسه بتحية مهذبة لإحدى المرأتين متجاهلاً الأخرى ١

الآن أفهم .. أن الذين حياهم كانوا يشبهونه إلى حد كبير ،
فهم إذن مندوبون مثله .. أما الذين تجاهلهم فكانوا يشبهونني إلى
حد المطابقة : الحزن والحنق والاحساس بالقهر .

هممت بسؤاله من باب التأني .. ن كان يوجد رجال غيره
يقومون بمثل هذا العمل ؟؟ فإذا به يقول مندهشاً :

— طبعاً يا أخي ١١

— معنى هذا أنه يوجد منهمون آخرون غيري يظاف بهم
الآن ؟.

— طبعاً يا أنحى . . هل تظن أنك فريد عصرك ؟ ١٠ هل أنت مغرور ؟ ١١

● لماذا كان المخفر الأربعون مختلفاً عن جميع ما سبقه ؟؟

قال المندوب :

— هذا المخفر رقم ٤٠ يختلف تماماً من ناحية أسلوب ضابطه في العمل ، فهو شغوف جداً بالكلاب البوليسية ، لا يثق في آراء المساعدين من بنى البشر ، يقول دائماً بأن الإنسان يكذب بنفس سهولة تنفسه ، أما الكلاب فهي لا تكذب ولا تخون ، وعلى الأنحص كلابه البوليسية التي أحسن تربيتها . .

— أنا لا أكذب ومع ذلك فأنا إنسان !!

ضحك ثم سكت ثم ضحك :

— قد تكون صادقاً في كلامك . . ولكن : أحقا تعيش عيشة الإنسان ؟

توقف وأحسن من هندامه :

— على كل فأنت في هذا المخفر لست بحاجة إلى الحصول على براءة عن كل ربع يوم ، ستعرض عرضاً قانونياً على كلابه

البوليسية ، فان أفنت جميع الكلاب بأنك برىء انصرفنا على الفور .

— هذا أريح

— ألم أقل لك ؟؟

٥٠ كلاب الأعجمية :

أوقفني ضابط المحفر في صف طويل من الرجال (عوفت فيما بعد من المندوب بأن عددهم يكون دائماً ٣٩) . . وبعد أن اطمأن إلى استقامة الصف ، وبعد أن قام بتفتيش كل واحد منا بحثاً عن شيء ما ا (علمت فيما بعد أنه يخشى أن يلدس أحد الرجال مواد نفاذة الرائحة تفسد من حاسة الشم عند الكلاب) . . التفت الضابط إلى امرأة خلفه متأملاً أناقته طويلاً ثم أدى التحية لصورة أعلى المرأة تمثل الديجم ونحت قدميه كاس هائل ، وبعد ذلك توجه إلى باب مجاور تنبعث منه موسيقى حاملة ، فتحه ونادى بصوب رقيق على اسم معين ليخرج إلينا كلب طويل السيقان ممدود البدن ، مشى يتهادى نحو صاحبه الذى بادلته نظرات الحب وربت على رأسه . . ثم أشار له فبدأ يشم رجال الصف واحداً بعد الآخر ، مر سريعاً على المجموعة المتطرفة ، وقبل الوسط تمهل أمام أحد الرجال فرأيت وجهه يتفعل ويحمر في

سعادة !! ودهشت لأنه لم يصب بالخوف بل لقد استاء عندما تركه إلى التالى فمن يلى التالى !! . . وهكذا حتى وصل عندي . .

تشمئني الكلب الهائل فتوترت أعصابي ، ودقق في تشمم رائحة حذائي (الذى كان قد بدأ يتهراً من طول المشي) . . ثم ارتد الى الخلف بحيث شمئني كلى فى نظرة واحدة ، فعرقت وتوترت وعلى الفور قفز نحوى !!

زام الضابط :

— عظيم !!

ثم وضع إشارة فى ورقة أمامه . . هتفت :

— إننى أعترض على هذه النتيجة

فألزمني بالتزام الصمت . . وداعب كلبه وصرفه . . ثم استدار ليتأكد من هندامه قبل أن ينادى على اسم آخر ، ليخرج كلب مبرطش الفم لا يكاد يعلو عن الأرض . . ركع له الضابط ليقبله ثم أعطاه أمر البدء ، وبدون مجهود يذكر هجم على الكلب القمى !

أردت أن أعلن احتجاجي فأندرنى بالجلد . . وتكرر ما حدث مع سبعة كلاب أخرى ، لكل واحد منظره وطوله وارتفاعه

وطريقته الخاصة في الهجوم نحوى والإخذ بتلابيبي ١١ . . . وعند ذلك جاهرت محتجاً :

— أنا لست مجرماً . . لست مجرماً

اندهش الضابط :

— ومن قال ذلك ؟ ١٢ إن فحوصك لم يكتمل بعد ١١

— ولكن جميع هذه الكلاب اللعينة

— حذار أن تخطيء في حقها . . إنها كلاب أعجمية ليست من ملتي وليست من ملتك فهي منزهة عن التحيز ..

ثم أمر بادخالي إلى زنزانة صغيرة لها أربع درجات تحت سطح الأرض ، وأدهشني أنه لم يصرف الرجال الآخرين الذين لم تطالبهم الكلاب بل أدخلهم زنزانة أخرى واسعة الباب . .

وقد أفهمني المندوب بأن هناك مجموعة أخرى من الكلاب لا بد أن أعرض عليها ، وأنها لم تتمكن من الهجاء لأسباب مختلفة — وهذا من سوء حظي — فراحلمنها أصيب باكتئاب نفسي وآخر تأخر في النوم ولم يجرؤ أحد على إيقاظه ...

وعندما أغلقوا الباب من ورأى وجدت نفسي في ظلام أكيد ..

الفصل الرابع

نقوش المخفر الأربعين

● في البدء ...

وجدت الزنرانة صغيرة معتمة - عدا بقعة ضيقة من نور
النهار مناسبة إلى الحائط من كرة صغيرة علوية . ولا شيء آخر
إلا الظلام والرطوبة والصمت ..

جلست على الأرض قرب سريط النور الواهي ، حانقا
مقهوراً .. ظننت أنني سأنتهي من هذا المخفر بسرعة ، وأنا الآن
لا أدرى متى تشفى كلاب الضابط من وعكها ، ولا متى تنعدل
نفسية الكلبة المكتئبة مزاجياً ؟ !

والمؤكد أن أمل في النجاة صار ضئيلاً بعد أن تعرفت على
جميع الكلاب السابقة ، واعتراضاتي على خططها لن تجدى لأن
صاحبها لن يصدقني ليكذبها !!

حاولت الهروب من واقعي الثقيل إلى ذكرياتي اللطيفة ،
بلا جدوى ! .. لكنني - وبمجرد أن جاءني من الطريق صوت
الناس والعربات والأطفال والباعة - وجدت صوت حبيبي
يداعب سمعي .. ترى أين هي الآن ؟ ! .. كان موعدي معها
الليلة التي أخذني فيها « الهؤلاء » .. كم أحن إلى همسات حبا
وأناملها الناعمة تداعب شعري في ود .. لكنني تخوفت من تلميحات
الرجل المضغوط عنها ، ومن صورها التي يحتفظ بها داخل
المظروف ..

نكست رأسى .. ولوهلة خلت أننى سمعت صوتاً قريباً ،
حملت فى الظلام فلم أجد شيئاً ملفتاً .. وتمنيت لو تمكنت من
النظر إلى الشارع من الكوة العلوية ..

ثم لفتت نظرى كتابات محفورة على الجدار الساقط عليه
شريط النور، وأدهشنى أنها تبدو حديثة الحفر ! .. فهل هناك
من يشاركنى هذا الجحر الآن ؟! وهل يكون نائماً الآن ؟! ..
همست :

— هل من أحد هنا ؟؟

انتظرت ولم أسمع ، فرحت أحاول قراءة النقوش المحفورة ،
وكان الأمر صعباً لرداءة الخط ، لكنى ميزت بعضها : « انظر !
.. فى البدء كذب الدياجم ... » ..

وقبل أن أحاول الإكمال رأيت ظل شبح يقطع شريط النور
متحركاً ، رفعت رأسى إلى الكوة فلم أجد أحداً ، ثم سمعت
الأنفاس إلى جوارى ، ورأيت الرجل ..

● .. ومنذ الأزل :

تراجعت منزعجاً ، وكان ظهره للنور فلم أكد أراه إلا
شبحاً .. تحايلت مستديراً من حوله فى نصف دائرة بحيث دار

معى فجاء النور فى وجهه ورأيت . . ويا للعجب : بصعوبة
يتأكد المرء أن ههنا فى الأصل كان وجه إنسان !! .. سألته :

— من أين دخلت !؟ .

قال :

— من أين أنت دخلت !؟ أنا موجود هنا منذ الأزل . .

— منذ الأزل !؟

— هكذا أشعر .. أليس الإحساس بالزمن نسبيا يختلف
من إنسان لآخر بحسب المزاج الخاص والواقع المحيط !؟

وكان مشعث الشعر والذقن وصوته مرتجفا وجسده دائم
الاهتزاز :

— عندما تمكث طويلا وحدك فى مثل هذا الجحر فانك
ترتبك وتفقد قدرتك على الإحساس بالزمن وعلى تمييز
الاتجاهات ، ويختلط الماضى بالحاضر والوهم بالواقع . وتظن أن
الأيام أعوام .. إننى أنام فى الليل لأستيقظ بعد وقت ، دقائق
أو ساعات ! .. ظنا منى أن الصباح قد جاء ، ثم أكتشف أننى
ما زلت فى الليل وربما فى أوله .. أنام مرة أخرى وأستيقظ ظنا
أن هذا الصباح قد حان وقته .. وهكذا عدة مرات كل ليلة ..

وعند الصباح الحقيقى تختلط الأمور فى ذهنى فأحтар : أى
يقظة كانت الحقيقة ؟! وهل كانت جميع هذه المرات خادعة
أم بعضها فقط ؟! .. ولا يهمك إن تعرف ، إن الحقيقة هنا غير
ذات أهمية .. وتفقد الليلة الواحدة واحديتها . ، وكذلك الحال
مع النهار .. انظر ! فى هذا الجحر لا يميز النهار عن الليل إلا
شريط النور هذا ..

ابتسم فى مرارة :

— لكنى فى الأيام الأولى كنت أهب مدعورا فى الصباح
الباكر ، ظناً أنى سأتأخر عن ميعاد العمل !! .. وتمر ثوان
كى أتذكر أنى هنا .. لكن حدثنى عن وضعك وعن
الخارج ..

فها حكيت له أمارق بئسا ، وسألنى إن كان لى أحباب فى
الخارج بقلقون بشأنى فذكرت له أمر حبيبتى ذات الهمسة
الأسرة .. فهمس :

— أنا أيضاً كانت لى حبيبة ذات همسة أسرة

ثم دفن رأسه بين ذراعيه وساقيه وصار يرتجف كصخرة
سوداء تنزلزل الأرض من تحتها ..

● أقوال أخرى لسجين الجحر :

وبينا هو يرتجف أكملت أنا قراءة النقش المحفور : « انظر .. فى البدء كذب الدياجم .. ثم الملاك والتجار .. ثم الساسة والمتقفون .. انظر : ففسدت الرعية وعم الفساد بأرجاء البلاد » .

وعجبت لأنه أضاف المثقفين إلى هذه القائمة ، وتذكرت للتو حادثة الأديب النصف معروف معى وحديثه عن الساعات وعن رعب المثقفين من الهؤلاء .. ثم عدت إلى النقش المحفور وفكرت سائلا نفسى : لماذا يكذب الانسان ؟ ثم أجبت : يكذب الانسان لضعف ما بداخله ولضغط ما من خارجه .. تبدأ المأساة بفساد الدياجم فيضغطون ، وبعدها يفسد الضمير ، وهناك طبعا من يقاومون وهم من يجعلون للحياة طعما مقبولا ، فهم ملح الأرض .. لكن هناك دائما من يتملقون السلطة ويرضخون للهؤلاء عارضين أنفسهم وحول أعناقهم لافتات كتب عليها : « للابحار » .. فالحاكم أقوى ومعه الأمر والنهى والمنع والمنع .

● أصل البلاء :

تماسك السجين ورفع رأسه .. فسأله :

— هل أنت حافر هذا النقش ؟؟

أوما .. سأله :

— في رأيك إذن أن الكذب هو أصل البلاء؟؟

— ليس وحده ، لكنه بكل أنواعه وتدرجاته أصل البلاء..
انظر لما يكتب في الجرائد والمجلات وقد صارت نسخا متماثلة ،
استمع لما يذاع بالراديو والتلفزيون ، الفجاجة والرياء واستغفال
الناس .. كل الحياة صارت كذبا ونفاقا .. انظر عندما يتخذ
الديجم قراراً سنجد الأقلام تتبارى في تأييده ، فاذا تراجع عن
هذا القرار فإن نفس هذه الأقلام لا تمنجل من تبرير هذا التراجع
.. إن الصحفيين في ديار أيوب ط لبوا إلا مبررين .. انظر
عندما ينوى الديجم إصدار بيان ، تظل الجرائد تبشر بهذا البيان :
« الديجم يذيع بياناً على الناس بعد خمسة أيام - العالم كله ينتظر
بيان الديجم بعد أربعة أيام - العالم يترقب بيان الديجم بعد
يومين - غداً البيان التاريخي - اليوم يذيع الديجم بيانه على
كافة المرجات الفصحى والموسولة - نص البيان الخطير -
إصدار واسع للبيان التاريخي استسرار الأصداء الواسعة
للبوم الثاني » .

النقط أنفاسه ثم سألتني :

— قل لي ماذا تسمى هذا؟؟ .. لقد تعمدت الاستماع إلى
إذاعات الدول الأجنبية عقب إحدى هذه البيانات الخطيرة مباشرة

فلم أجد إحداها تشير إلى هذا البيان ١١ . : انظر إذن : السنة
كالمرافق المحروم الذي يستمني على روحه فيضاجع أحلى البنات
في خياله وبالوهم ١١

● أظنه رمسيس الثاني :

عدت إلى تأمل الكلمات المنقوشة في خط رديء وفي سطر
ماثل إلى الانحدار .. وقلت :

— قرأت أن المصريين القدماء كانوا يحفرون أقوالهم وأخبارهم
على الصخر والجدران ، مثلك هكذا ..
قال :

— كانوا يهرون هذا بالفعل . . إنني مغرم بقراءة تاريخ
هذه البلاد المسماة مصر . . وبمناسبة ذكر قدمائها فإنني قرأت
عن فرعون حكمها منذ آلاف السنين ، وأظنه رمسيس الثاني ، هذا
إذا لم تكن ذاكرتي قد تشوشت من هذا الجحمر . . ادعى هذا
الملك بأنه قد هزم الحيثيين في معركة قادش ، وسجل هذا الادعاء
في مناظر ونصوص فوق كثير من معابد مصر بينما نعرف أن
أعداءه قد أخذوه على غرة ، لولا نجدة قائد جيشه له . : لقد
غطى على حقيقة وقوعه في الفخ باحتفال هائل بشجاعته زاعما
أنه وحيد وليس معه أحد حي جيشه ، قال وحيدا وليس معه
أحدا ١١ . : وبلغ من جرأته أنه أمر الحفارين (وهم الصحفيون

والإعلاميون في زمانه) بنقش أنباء بطولته الفردية حتى على
معابد أجداده وصخورهم ! ! . . فكان بذلك من كبار مزورى
التاريخ . . ثم مضى يشيد لجسده القصير تماثيل صخرية شاهقة
تطاول طوله الحقيقى عدة مرات ليعوض قصر بدنه ونقصه نفسه . .
انظر : لقد حكى لى بعض السياح الذين زاروا مصر أخيراً أنهم
رأوا أحد هذه التماثيل رؤية العين وقد أعيد تشييده فى ميدان
الخميلة بالقاهرة . . . وعلى كل حال فإن هذا الحاكم لم يكن
الأول فى التاريخ كما أنه لم يكن الأخير الذى زيف الحقائق . .
إنه الكذب . . أو على الأقل : المبالغة !

● لكل واحد سعره :

قلت :

— أشعر أن الذى أتى بك إلى هنا هو إنسان كاذب .

— كاذب جاء من مضاجعة رجل كاذب لا امرأة كاذبة فى
ليلة زائفة ، فجاء بكف قصير واهن الضغطة عند التحية ،
وبطاقة على إفراز كتابات لا أول لها ولا آخر ، لا تعنى شيئاً . .
سمعت مرة يتشاحن مع أحد المثقفين فيهدده قائلاً : « تعال معى
إلى أقرب مخفر كى أعرفك من أكون » . . تصور ! ! لم يقل
تعال معى إلى أقرب بيت ثقاتى ! ! أليس هذا دليلاً على تعامله

مع هؤلاء ؟ ١ . . . إننى كلما تذكرت عبارته هذه تأكد لى أنه قد
وشى بى كذبا ، لأظن حبيس هذا الحجر بعيدا عن حبيبتي . . .
ثم مضى بعد ذلك يحدثنى عن حبيبته هذه . . . فشرود ذهنى
إلى فتاتى الحميرية ذات الضفيرة الواحدة ، واستعدت ضغطة
كفيها فوق ظهري تشدنى إلى حضنها الراغب وهمسة شفتيها
ووشوشاتها المنتشية ..

وبعد ذلك شرح لى ما وصل إليه حال المثقفين المستقرين ،
تم شراء معظمهم ، لكل واحد سعره حسب قيمته وحسب مقدار
أكاذيبه التى تؤثر فى الناس ، فإن استنفدوا الغرض منه تم ركنه
فى داره ، فلا يجد من يذكره لأنه يكون قد فقد احترام الجميع
وحبهم ..

ثم قال لى :

— ومن لا ينجع لسلطة الدياجم فصيره معروف ..

صمت . . ثم قال فى غل :

— انظر .. أنا لم أداهن ..

● المسألة النسبية :

فرحت أتأمل الحجر الذى آل إليه .: قال :

— انظر : هل تعرف أن هذا البطش يزيد من تخلفنا الحضارى وبالتالى يزيد من تبعيتنا لمن هم أكثر تقدما ؟!.. انظر : فالجهلة فى ديارنا يسيطرون على كل الأمور ولا يجرؤ أحد على قول ذلك !! .. وهم يحقدون على المثقفين لعلمهم ، وبسبب هذا العلم فهم يخشونهم ، لذلك يضطهدونهم وينكلون بهم إلى أن يهاجروا أو يصمتوا أو يتدروشوا .. وفى جميع هذه الحالات يسود الجهل ويصبح سلوكا يوميا ، وتتفشى النوغائية ، ويسرى الدجل والكذب إلى جميع الأمور حتى يتسلل كالسم البطيء ، متسربا إلى نفس العلماء فيتخلخل علمهم : . . والمسألة نسبية ، انظر : إننا نتقدم فى ببطء شديد ، بينما الدول المتقدمة تركض قفزا إلى الأمام ، وبذلك فإن المسافة بيننا وبينهم تزداد يوما بعد يوم .. فما بالك إن كنا نحن لا نتقدم أصلا ؟!

تهنئ :

— هل تعرف ماذا كانت غلطى ؟! .. لقد قاومتهم بمثالية المثقف الذى يرى للحقيقة أكثر من وجه ، فيها الأسود والأبيض وما بينهما ، بينما هم حاربونى من منطق : من ليس معنا فهو ضدنا ، والغاية تبرر كل الوسائل .. انظر : لذلك لم يتورعوا عن استخدام جميع الوسائل معي !!

ظل يضرب الأرض بقبضته غيظا .. ثم قال :

— اعذرني إن كنت تجدني لا أكف عن الكلام ، الوحدة مميتة ونادراً ما أجد إنساناً يسمعني ، فاعذرني .. وحدتي عن جريرتك أنت .

قلت :

— أكاد أفهم الآن .. إنني لم أعارضهم عملياً ، لكنني في نفس الوقت لم أؤيدهم ، فصرت عدوا لهم حققت على لعنة الاعتقال والظروف بعموم مخافر أيبوط ..

● أقوال أخيرة له :

عقب ذلك دام الصمت الثقيل حيناً ، زادته ثقلاتك التهنيدات المقهورة التي كانت صخور الجحر تزيد من كثافتها .. وظل الحال على هذا المنوال إلى أن سمعت صرير الباب ، حيث جاءوا ليأخذوني إلى العرض الثاني على باقي مجموعة الكلاب . :

وقفت مختاراً : كم من الوقت مكثته في هذا المكان بالضبط؟؟ ثم لاحظت أن السجين لا يبعد عيني عنى ، قال بنظرة كسير :

— عندما تخارب الأوساخ فعليك أن تستخدم أساليبهم ، وإلا فإنهم ينتصرون عليك ، ثم يشوهون حقيقة أفعالك لأن المنتصر هو الذى يصل صوته إلى الناس ، أما المهزوم

وهذه المرة كان هو الذى أخذ يتأمل ظلام الجحمر .. ثم أضاف
فى أسى مرير :

— إن جاء اكتشاف العبرة متأخراً فهى لا فائدة منها !!
وكان قوله حقاً .. كذلك قال :

— وإن ضربك ملائكتك تحت الحزام فاضربه فى أى مكان
تطوله وبأى سلاح ..

استعجلنى الشرطى للخروج فعرضت على السجين البائس
أن أنقل منه أية رسائل إلى أعزائه فى الخارج ، فقال إنه يتمنى
أن يرسل بعض كلمات الشوق إلى حبيبته ، غير أنه اكتأب :

— لكنى لست واثقاً من أنك ...

ولم يكمل

❶ كيف تعرف الكلاب ؟ ! :

تعرفت على الكلاب الجديدة ، جميعها ، فهيات نفسى
للعودة إلى جحر صديقى الذى نسيت أن أسأله عن اسمه : وتوقعت
أن يصرف الضابط باقى رجال العرض ، لكنه فاجأنى بادخالهم
الزنزانة الكبيرة !! : ثم مهر ورقة براءة بشعار مخفره وأعطاهما
للمندوب المرافق لى الذى حياه وسبقنى إلى الخارج ، فتبعته مذهولاً
لا أفهم شيئاً !

وعلى عتبة المحضر أضاف الى الشهادات السابقة هذه الشهادة
الجديدة التى ليست إلا رقم أربعين ، هذه المرة براءة باجماع جميع
الكلاب :: لكنى كنت مندهشاً ، سألته :

— كيف تركنى الضابط رغم تعرف الكلاب على ؟ ٩ !

— لهذا السبب أفرج عنك ، فهذه الكلاب لا تتعرف على
المواطن المذنب وإنما على المواطن البريء :

— هذا ما لم أسمع عنه من قبل 11

— ألم أقل لك أن هذا الضابط وكلابه شيء مختلف تماماً .

ثم شرح الأمر . . . ففي البداية درب الضابط كلابه على
التعرف على المذنبين ، فلما وجد أن عددهم يتزايد باستمرار
خاف على أنياب كلابه المدربة ، فقرر أن يعكس تدريبها بأن
تتعرف على الأبرياء ، ثم خصص كل كلب لنوع معين من أنواع
البراءة ، فواحد مهمته اكتشاف البريء من السرقة ، والآخر للبريء
من القتل والثالث من التذكير وهكذا ...

قلت :

— كيف يعرف الكلب البراءة دون أية قرينة ؟ ؟ ؟ فالمعتاد
أنه فى جرائم القتل مثلاً يشم الكلب رائحة السلاح أو أى أثر

من آثار المجرم يكون قد تركه ، ثم يظل يتفحصى هذه الرائحة حتى يصل إلى صاحبها :.. ولكن إن كان الانسان بريئا فهو بلا أثر أو رائحة فى أى مكان للجريمة لأنه ليست هناك جريمة ، فكيف يشم الكلب رائحة البراءة ؟! والأصعب من هذا : كيف يشم رائحة البراءة من التفكير ؟!

رد المندوب فى صرامة :

— ضابط المخفر يعرف كيف يتقن عمله ..

لكنه بعد حين همس :

— بينى وبينك فإن رأى مثل رأيك . . إننى أعشد بأن الكلاب ارتبكت ولم تعد تفهم بالضبط أوامر صاحبها ، فهى فى كل مرة تجد الطابور الكبير الذى وقفت أنت فيه ، وفى كل مرة تجده مكونا من نفس الرجال التسعة والثلاثين الذين وقفوا معك عدا واحدا غريبا فقط ، لذلك فإننى أظن أنها صارت تظن أن المطلوب منها هو إخراج الغريب ! . . وطبعاً لا علاقة بين هذا وبين البراءة أو عدمها .

عند ذلك عبرتنا سيارة طويلة عظيمة المخامة أثارت ترابا كثيفا فى عيوننا .

● المندوب يمشى مختالا :

.. وظللنا نطوف ونطوف . حتى وصلنا إلى مدن صغيرة
لم أسمع عن أسائها ، وأحياء ممعنة في الفقر لم أكن أتصور
وجودها في أيوط السعيدة ، مما جعلني أتعجب من سكانها :
كيف لا يخرجون شاهرين سيوفهم وهم باتوا لا يجدون قوت
أولادهم ؟ !

وانتفخت الحقيبة ببراءات الخافز — عادة ماثت على ما أظن—
وتضاعفت بذلك مكافأة المندوب فسار بجوارى مزهوا منتفخا
كأحد كبار الأثرياء . . وفي نفس الوقت رحت أمني نفسي بقرب
استرداد حريتي ، وصرت أستعجل هذه اللحظة .

● الشارع الجاني :

وفيه صادفنا عددا من المتسولين ، وعددا آخر من المتسكعين
مهملى الثياب . . ثم عبرنا على امرأة بثوب صارخ اللون ،
تفحصتنا مليا ثم صرفت أنظارها عنا وبعد أن ابتعدت قليلا ظلت
تسب المندوب بأقذع الألفاظ ... وكنت قد بدأت أشعر بالجوع .

وأمام الأكواخ الصغيرة الفقيرة كان الأطفال الحفاة وكلب
أجرب ، ورأيت الذباب يكاد ينحني وجه طفلة صغيرة تلعب في

الطين . . وعلى الجانب الآخر سارت فتاة جميلة ناهدة فائرة
يغازلها ولد ممشوق القامة ، وكانا جميلين لولا أنيميا بشعة تصبغ
وجهيهما بصفرة الكركم ! !

قال المندوب معتذرا :

— شارع قدر لكنه أقرب إلى محطة البلدة من الشارع
الرئيسي .

ثم أسرع أمامي بحقيبتيه السوداء المنتفخة بشهادات براءتي .
ولو هلة فكرت أنني يمكنني الهرب في مثل هذا المكان المزدحم ،
لكنني فوجئت بالمندوب يحكي لي حكاية متهم سابق حاول الهرب
فلم يفلح وكان نصيبه التكميل بالسلاسل الثقيلة لليدين والقدمين
مدى الحياة .

ثم تابع سيره في هدوء وثقة وسبقني دون أن يلتفت ورائه
.. والجوع يكاد أن يفتك بي :

الفصل الخامس

انظر ؟ ؟ انظر ؟ ؟

● منه أكل ومنه تسالى :

فى قطار الدرجة السابعة زاد شعورى بالجوع إلى درجة
آلمت بطنى ، منذ عشرين ساعة تقريباً لم تدخل معدتى لقمة واحدة..
وعندما أخبرت المندوب بها ونحن سائرون فى الشارع الجانبى
صبرنى قائلاً :

— سوف نأكل فى القطار لأنى لاأضمن نظافة الأكل فى هذا
الشارع الوضيع ، ومادمت أنت عهدة فى حوزتى فانا مسؤول عن
حياتك إلى أن تسجن

وبعد برهة أكل فى رنة ساخرة :

— أو يطلق سراحك

وكان جوعى أقوى من أن لاحظ الرنة الساخرة . لذلك
فقد ظللت أترقب بائع القطار حتى أهل بسندويتشاتة .. تناولت
واحدا والمندوب واحدا ، واشترى المعجوز المجاور واحدا ..
وكان مع البائع كتاب عريض ، نزع منه ثلاث ورقات ليلف بها
السندويتشات الثلاثة التى باعها لنا .

الهمت سندويتشى بسرعة الجائع ، ولم أعرف بالضبط إن
كان ما به جبن أم شىء آخر .. ولما فرغت قبل المندوب وقبل

العجوز المجاور ألقيت بورقة الماف ، ثم لاحظت أن بها كتابة فالتقطتها ثانية ، وأخذت أسلى نفسي بقراءة ما فيها .. ويبدو أن الكتاب الذى انتزعت منه كان كتابا فى التاريخ ، وبالتحديد فى تاريخ تلك الدولة المظلة على البحرين الأبيض والأحمر والمرتوية من نهر النيل والمسماة مصر ..

وكانت الورقة تحتوى على صفتين ، ورحت أقرأ

● الصفحة الأولى من الورقة :

... .. رأسا على عقب ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .. وسنقتبس مقتطفات من عدة نصوص تتفق فى دهشتها وحزنها على ما آل إليه أمر مصر القديمة :

فالمثنىء « إيبو - ور » يقول : « انظر ! لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار ، فاللص يملك والشريف يتهم والأمين يطارد ١٤ .. لماذا أصبحت الطرق غير محروسة ، إذا خرج ثلاثة رجال عاد منهم اثنان ١٤ .. انظر : لماذا صارت هذه الأعوام أعوام خوف ١٤

ليت ذلك يكون نهاية الناس فلا حمل ولا ولادة ، لتخلو الأرض من ضجيج المحاصمات !! ».

انظر : لقد عرف سر البلاد !! انتهى الأمر وعرف سر
البلاد !! »

وبعد ذلك يتساءل « إيبو - ور » عن فائدة خزانة الدولة
وهي دائماً خاوية ، فوظفو الخزانة يسرقون الضرائب ، وقوانين
الديوان قد ألقيت إلى الطريق !

واستشرت الفوضى في عموم البلاد حتى صار الموتى لا يجدون
من يدفنهم ، وصاروا يلتقي بهم إلى النهر ، فأصبح مجرى الماء
قبرا !!

وهذا يتضمن الانتحار أيضاً ، دفع اليأس والجوع والظلم
بالكثيرين إلى الانتحار بالقاء أنفسهم إلى النيل الزاخر بالماسيح :
« انظر : إن الماسيح تبقى تحت الماء لكثرة ما حصلت عليه ! ..
ولم تعد في حاجة إلى الخروج بعيدا عن النهر لاصطياد فرائسها ،
فالناس يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم .. »

... ..

إلى هنا انتهت الصفحة الأولى من ورقة السندويتش ، فقلبتها
إلى ظهرها ، شاكرًا الظروف أن مثل هذه الأمور لا تقع في
إيبوط المحيدة ، فهي سعيدة طبقا للبيانات الرسمية ..

● نص المكتوب في ظهر الورقة :

.. كان ما أصاب مصر مرضا كامئا في جسدنا ولم يكن
عدوى أو إصابة من أحد آخر، إذ لم يكن الجسم المصرى على
قادر كاف من الصبغة .. فانهارت الدولة من الاجهاد الداخلى ،
وتركت الحدود مفتوحة لا يدافع عنها أحد .. فعرف سر البلاد
وتدفق الآسيريون ، وناح المثني « نفر -- روهـر » معنا : « ظهر
الأعداء في الشرق ، وجاء الآسيويون إلى مصر . ستشرب
وحوش الصحراء من مياه النيل !! »

ولكن اليأس والزهـد لم يكونا الردين الرحيمين 'على مشكاة
الأم . . إن « إيسر - ور » يجابه حاكمه قائلا : « تتجمع فيك
السلطة ولكنك لا تنظر في البلاد غير ضوئنا الفوضى .. انظر :
صار كل شخص يخطى وبعده بحرفا من المستقبل ، وهذا يعنى
في الحقيقة أنك كنت كاذبا .. »

كانلك فلاح « أهناسيا » النصيح . نجده لا يتهيب من مجابهة
حاكمة : « على من يوزع الحق أن يكون مصفيا ومضبوطا مثل
كفتى الميزان .. لقد عينوك لتكون سدا لاكتالم تخافظ عليه
من الغرق ، ولكن انظر : إنك أصبحت البحر الذى يغرق فيه
الناس !! » ..

ورغم شدة قتامة الصورة ، فإن المؤرخين يعتبرون هذا العصر عصرا زاهرا في تاريخ التقدم البشرى بسبب أن مصر كانت قد وصلت إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصى فى معاملة عادلة ..

وسوف نرى فى الباب العاشر من هذا الكتاب أن الانهيار النهائى للروح المصرية جاء مع إنكار الحكام على الناس حق الكلام ..

... ..

انتهت سطور هذه الصفحة ، ويبدو أنها كانت نهاية فصل من الكتاب ..

❶ ذات الهمسة الآسرة :

كان القطار يسير بطيئا ، وعدد من الركاب قد ذهبوا فى إغفاء القيلولة .. ويبدو أن العجوز المجاور كان يعانى من الملل مئلى ، إذ كان منهمكا فى أكل سندويتشه ، بينما استغرق فى قراءة ورقته وقد رفعها أمام عينيه بيده الأخرى ..

ظللت أنتظر فراغه منها كئى أتسلى بقراءتها - بينما المندوب يأكل سندويتشه فى تباطؤ الشبعان ، دليلا على تناوله الطعام فى

المخفر الأخير من خلف ظهري ودون أن يتذكرني - فأخذت
أسلى نفسي بالتطلع إلى الخارج .. وبعد وقت سمعت صوت
قطار يقترب من الاتجاه المضاد ، فنظرت بدافع الفضول ، ولما
حاذانا رحلت أتأمل عرباته ، وعندها وفي عربة الدرجة السابعة
نحيل لى أننى شاهدت حبيبتي بجوار إحدى النوافذ !! .. فقفزت
مشرئبا بجسدي خارج العربة مناديا عايتها بأعلى صوتي ، غير أن
قطارها ابتعد ثم اختفى .. فجلست مفعلا ليرمقني المندوب بنظرة
حاددة صارمة دون أن يكف عن المضغ البطيء ، وليتأمني العجوز
المجاور طويلا في حنان ورثاء ..

ساءلت نفسي : أتكون هي حبيبتي حقاً ؟ وإن كانت هي
فما الذي أركبها عربة الدرجة السابعة ؟ .. ثم تذكرت أنه كانت
إلى جوارها امرأة أخرى !! .. فهل أمسكوها ليطوفوا بها مثلي ؟
ولكن لأي ذنب ؟

أنعمضت عيني هامسا لنفسي بأن ما رأيته لبس إلا وهم
خيال خلقه ذهني المكدود ، وبأن المرأة التي شاهدتها ليست
حبيبتي ..

غير أن دوامة الوسوس استولت على : كيف حالها الآن
بعد أن طال بنا الفراق ؟ وهل تحمل الحياة في غيبيتي دون رجل
ودون حب وجنس ؟ ..

ولم ينقذنى من هذه الدوامة المزعجة إلا صوت العجوز
المجاور يطلب منى مبادلتها ورقة بورقة ، فرحبت بذلك .. ومن
المنظرة الأولى أدركت أن ورقته ليست التالية فى التسلسل الرقى
لورقى ، إذ يبدو أنها كانت تتحدث عن فترة أخرى (حوالى
عام ١١٧٠ قبل الميلاد على ما أذكر) .. وفيها حدث انهيار آخر
للدولة المصرية بعد أن كانت مركزا الحضارة العالم المأهول ..

وبدأت أقرأ ورقة العجوز ..

● الوجه الأول منها :

(وهو محلى بصورة لأحد النقوش الفرعونية تمثل بعض
العمال أثناء عملهم .. وتحت الرسم كتب ما يلى :)

... .. الشهر الثانى ، من الفصل الثانى ، اليوم العاشر :
فى هذا اليوم احترق طريق العمال فى الجبانة الأسوار الخمسة
صباحين : « نحن جوع ، نحن جوع » — وكان هذا أول إضراب
للعمال فى العالم — وفى اليوم الثالث تجرأوا وهجموا على معبد
رمسيس الثانى ، وعند ذاك هرع إليهم عدد كبير من الحراس ،
ووعدهم كبير الشرطة بأنه سيرفع الأمر إلى عمدة طيبة الذى كان
قد فضل الاختفاء عن الأنظار .. كان المضربون مصممين على
موقفهم ولسكنهم لم يخرجوا على النظام ، واستمع الموظفون إلى

احتجاجهم : « لقد جئنا إلى هذا المكان بسبب الجوع ، فنحن بدون ثياب وبدون زيت وبدون سمك وبدون خضراوات .. وصرخوا لهم مخصصات الشهر السابق .. »

ولكن التجربة علمتهم ألا تثنيهم الترضية الجزئية عن عزمهم .. وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالي أيضا ..

ولعل قلة الدخل وعدم أمانة الموظفين والمنازعات السياسية والإهمال في العمل وانتشار الرشوة كانت من بين الأدواء الكامنة في تاريخ مصر ... فكان الفساد الأعظم وأعوام الضياع التي فيها مات الناس جوعا ... لتمر السنين ويحكم مصر « ششنق » الالبي ثم « بيغنخي » الأثيوبي ثم الآشوريون والبابليون .. ثم تلا ذلك غزو الفرس لمصر وأخيراً المقدونيون ... إلى آخره وهذا مما أدى إلى إحساس المصري بالذنب وإلى شعوره بالخطيئة

● الوجه الآخر من ورقة المعجوز :

... .. وسنقتبس جزءا من أناشيد الندم والتوبة التي انتشرت في ذلك العصر .. يقول المأسد : « أيها الإله لا تعافني

على ذنوبي الكثيرة ، وإننى امرؤ لا عقل له أقضى طوال يومى فى
ملء فمى كما تفعل البقرة فى طلب الحشائش .. » ..

وهنا نرى حرصه على تحقير ذاته وتشبيه نفسه بالبقرة التى
لا تتكلم ، فقد كانت أهم صفة يمتدحها الناس فى ذلك العصر هى
الصمت ! .. ويعنون بالصمت أشياء عديدة ومهينة منها : الصبر
القهرى أى الاستسلام والتواضع العاجز أى الخنوع ..

وعلى العكس من ذلك نلاحظ أنه فى عصور الازدهار وعظمة
الإمبراطورية لم يكن الصمت ميزة من الميزات التى يتباهى بها
المصرى المرح ، بل قدرته على الفصاحة لنيل مبتغاه : « كنت فنانا
فى الحديث ، شجاعا بلسانى ، عاملا بذراعى » .. وكان يجاهر
متفاخرا بأنه ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء ..

فأما تصابت سرايين مصر زاد التجاؤها إلى الشكل عوضا
عن المضمون ، وأصبح الناس منصرفين إلى المظاهر الطقسية ،
لأنهم رأوا فى ذلك استمرارا لنشاط أيديهم وأفواههم التى
حرموها من نشاطها وحريتها الخاصة ، وظهرت الشعوذة ومظاهر
السحر والرقى ، والإيمان بالقال والاتجاه نحو النبوءات : .. لقد
شغل المصريون أنفسهم بهذه الأشياء متناسين أنه كان محالا بينهم
وبين التعبير عن آرائهم الفردية ..

... ..

وفي أسفل هذا الكلام رسمت زهرة اللوتس ، ربما بسبب
انتهاء الكتاب أو على الأقل انتهاء هذا الفصل •

● العجوز الذي يهوى التجوال الدائم :

١. وكان القطار يبطنء إيدانا بدخوله إلى المحطة القادمة
٢. ولما نظرت إلى المندوب وجدته قد انتهى من الأكل وورقة
السندويتش ملقاة أسفله على الأرض ، التقطتها ونظفها من آثار
حذائه بينما هو ينهض متجهاً إلى باب النزول ، لاكتشف بعد ثوان
أن القطار توقف في غير محطة ولسبب غير معروف ، فعدنا إلى
أماكننا ، واحتفظت بالورقة في جيبي ..

كان العجوز يتأمل المنظر الخارجى فى هدوء ودعة وقد خلى
من قراءة ورقى ، وكان وجهه متسماً بسياء الحكماء . وسرعان
ما تحدثنا معا ، فعرفت عنه هواية ركوب القطارات ، يركب
الخط من أوله إلى آخره ثم يعود ليستقل قطاراً آخر ، وهكذا
وبلا ملل ..

قال :

— منذ أحالوني إلى الاستبداع وأنا جوال طواف

قلت رامقا. المندوب في حذر :

— جوال بارادتك ، طواف برغبتك .. وإني لأحسدك .

أوما في أسي :

— أعرف أنك طواف رغم أنفك ، جوال ضد إرادتك

— كيف عرفت ١٢

— كثيراً ما ركب إلى جوارى أشخاص مثلك يصحبهم

أشخاص مثله

همسبت في أذنه :

— رأيته في الذهاب أم في العودة ؟؟

— معظمهم في الذهاب

— لكنك رأيت بعضهم عائدین ١٢

— الحقيقة : لم تصادفني هذه الحالة

ولما رأى ابتئاسي أضاف برنة واهنة :

— أظن أنني تخيلت في بعض أشباهك وهم عائدون

● وكان قبل ذلك قاضيا يحكم بالعدل :

وكانت محكمته هي محكمة إيبوط الكبرى بالعاصمة ..

لكنه أحيل إلى الاستبداع قبل السن القانوني بعدة سنوات وليس

بناء على طلب منه :

- أحالوني إلى الاستبداد لأنى حكمت فى ثلاث قضايا فى
يوم واحد

- سمعت عن قضاء محكمون فى عشرات القضايا فى ساعة
واحدة

- ليس بسبب العدد ، وإنما بسبب النوعية

ثم أخذ يسهب فى الحديث عن هذه القضايا التى فصل فيها
فى حكم واحد .. وكان لصوته رنين القناعة بما فعل .

● القضية الأولى باختصار شديد :

وهى قضية سرقة : اتهم فيها واحد من صغار المحاسبين
بإحدى المؤسسات الضخمة ، وقد اعترف اعترافا متناقضا : قال
أنه سارق وفى نفس الوقت ليس بسارق !! .. فلما سأله القاضى
تفسيراً قص عليه قصته .. فى شهره الأول من العمل اكتشف
أن رئيسه المباشر يختلس من أموال المؤسسة ، فذهب وأبلغ عنه
رئيس القسم الذى وبخه وزجره لسوء ظنه .. وفى شهره الثانى
اكتشف أن رئيس القسم أيضاً يسرق ، فشكاه إلى رئيس الفرع
الذى أرسل إليه لفت نظر بالأيتناول بالشك مرة أخرى فى
رؤسائه الشرفاء .. لكن هذا الموظف ظل يكتشف شهرا بعد

شهر تورط رئيس أعلى ، مع تزايد حجم السرقة بتعاضد شأن كل رئيس ، إلى أن تدرج إلى نائب رئيس المؤسسة كلها 11 .. ففار دمه وطلب مقابلة رئيس المؤسسة شخصيا لثقتة في ورعه وفي المسيحة التي تظهر معه في جميع صور الاعلانات التي تنشرها المؤسسة تجديدا لبيعة الديهم .

واستمع إليه الرئيس في أناة ، وبعد أن سجل أمامه بعض الملاحظات نهض وحياه بتمحية المؤمنين شاكرًا فيه همته ونزاهته ثم صرفه .. ليفاجأ صديقي الطيب في اليوم التالي مباشرة بنخصم نصف شهر من راتبه الضئيل ، فجن جنونه وحاول مقابلة الرئيس مرة ثانية ولكنه منع بقسوة ، فما كان منه إلا أن اختلس من أموال المؤسسة ما يعادل تماما نصف راتبه المخصوص ظلما ... وبذلك يكون قد سرق ولم يسرق ..

وتلك هي خلاصة القضية الأولى كما رواها جاري العجوز في القطار المتوقف ..

● مجمل وقائع القضية الثانية :

(وكان القطار قد بدأ يسير) .. وهي قضية بغاء : والمهمة فيها امرأة نحيفة ضبطها أحد المولاء وهي تتفق مع أحد الرجال على قضاء ليلة في شقته مقابل مبلغ صغير .. وعندما وقفت أمام

القاضى رأى فى وجهها ما ينم عن سوء التغذية ، وعلى الفور تذكر بالمفارقة حال العمارة التى يقطن فيها ، وبها ٢٦ شقة كبيرة ، منها خمس عشرة على الأقل تمتلكها عائلات لأربابها مناصب هامة ولرباتها نفوذ واسع ، وهذا هو الظاهر بينما فى الحقيقة تدار هذه الشقق لمنفعة بعض الشخصيات الهامة والسياح وأصحاب البترول ، وكاله بالمال الكثير !! .. وهذه لايجرؤ أحد الهؤلاء على الاقتراب منها إلا كزبون .. بينما هم يقتادون المرأة النحيفة سيئة التغذية إلى القضاء ليحكم بالعدل ..

قال القاضى

— وقد حكمت بالعدل .. كما أراه ..

● أما القضية الثالثة :

فهى قضية إزهاق روح : قام بها أحد الفلاحين بقتل موظف «جمعية السجاد والكسب والبذور» فى قريته بطلق نار من بندقية قديمة ، ففضى عليه للتو ، وعندما قبض عليه اعترف ولم ينكر ..

والذى حدث أن هذا الموظف أعطاه بنورا فاسدة أنبت زرعاً هزيلًا ، ثم باعه سماداً مغشوشاً أضعف الزرع الهزيل .. وعندئذ شعر الفلاح بالإهانة إذ أن زرعة كاملة من أرضه قد

بارت وقتلت دون ذنب منه ، فجلس فوق الأرض يفكر ، وبعد وقت رأى أن هذا الموظف لا يستحق الحياة فقتله .

قال القاضي :

— وكل الذى فعلته أنى اعتمدت حكمه ..

● مبررات الحكم فى القضايا الثلاث :

ثم حدثنى القاضى على الاستيداع فقال :

— المعتاد أن يصدر الحكم فى كل قضية على حدة ، أى واحدة تلو الأخرى .. لكنى فى هذه القضايا الثلاث لم أحافظ على هذا التقليد ، ففى رأى أنها قضية واحدة .. أأست معى فى أنها قضية واحدة ؟

رمقنى المندوب بنظرة حادة فلم أرد .. وقال القاضى :

— أحضرت المتهمين الثلاثة وأعلنت حكمى فيهم .. قلت للمحاسب الصغير : عندما أتمكن من محاكمة رؤسائك المختاسين حتى رئيس المؤسسة نفسه فسوف أحاكمك أنت .. وقلت للبغى : وعندما أقدر على إدخال صاحبات الشقق الخمس عشرة وأزواجهن إلى السجن فسوف أدخلك أنت .. وقلت للفلاح :

أما أنت فقد أثبت دون أدنى شك أن كثيراً من الناس يصلحون
قضاة عادلين حتى وإن كانوا فلاحين مثلك !!
هز العجوز رأسه :

— وحكمت عليهم بالبراءة الشاملة .. فقامت قيامة البعض
ولم تقعد إلا بعد إحالتي إلى الاستبداد — وأنا غير نادم — لأنفق
معاشي في الطواف بأنحاء الأرض .. أجالس الناس وأتحدث
معهـم
ثم قال :

— وحكمتي في ذلك هي الابتعاد عن فساد القوم بالعاصمة .

● حبيبتي .. حبيبتي :

ولما سكت ظلمت ساهما صامتاً إلى أن عبرنا قطار مضاد ..
وهذه المرة تطلعت بسرعة من النافذة ، مدققاً النظر في عربة
الدرجة السابعة ، وكدت أقطع شكي باليقين عندما رأيت حبيبتي
من إحدى النوافذ وبجوارها امرأة أخرى .. أسرعت بالنداء ،
فنظرت نحوي وشرأبت بنصف جسدها ولكنها لم تلوح لي ،
وكان وجهها شاحباً باكياً ، وتطايرت ضميرتها الوحيدة مع الهواء
... لكنني لم أر فيها حسن حبيبتي وروعة بهاها .

وبعد أن اختفى القطار تماما عدت إلى مقعدى مغموما
مقهورا ، وشعرت بالعرق البارد يغمرنى ، وبكل الأشياء تغيم
من أمامى ، ففقدت إحساسى بالوقت وبالمكان ، إلى أن شعرت
بالمندوب يلكزنى فى عنف كى أهضى من خلفه حيث كان قطارنا
قد وصل إلى المحطة المقصودة ..

الفصل السادس

نظرية جديدة
في
نشوء المدن وتطورها

● الوحدة على الخط المنفرد :

.. ثم عدنا إلى المحطة بأوراق براءات جديدة . . وسار
القطار . . وتضاعف الورق حتى نحت أناسنوا إلى الطواف إلى
ما لا نهاية . . وفكرت في الهرب مرة أخرى لكن المندوب
عاد يقص على محاولات السابقين لي والتي باءت جميعها بالفشل
وكانت وبالا عليهم . .

وصلنا إلى الأطراف المترامية من أبيض . . حيث انقلب
الخط الحديدي من خط مزدوج للذهاب والإياب إلى خط مفرد !!
.. فلماذا خط مفرد ؟!

ثم أخذ الألم يعاودني عن المصير الذي آلت إليه حبيبتي !!
لماذا يفعلون بها ذلك ؟! .. وهاجمني صداع ثقيل عندما تذكرت
قول الرجل المضغوط بأن ذوقه في النساء يكاد يطابق ذوقه إلى
حد مذهل !! .. فهل طابها لنفسه ورفضته هي فانتقم منها .!

زاد ضغط الألم على قلبي ورأسي ، فغامت عيناى عن
الرؤية . . وقلت ربما لم تكن هي ، ربما كانت شبيهة لها . . .
بينما القطار فوق الخط المفرد يتأرجع على مهل - ولم يعد به من
ركاب غيرى وغير المندوب - والبيوت الكالحة تراجع وتنخفض
لتحل محلها خضرة باهتة لزراع عليل ، ثم أكواخ الطين وعشش

الفقراء وانحناء الجوع والمرضى .. وبعد ذلك جاءت الصحراء ،
جرداء صفراء صفرة لانهاية ، خالية حتى من الكأ ، حتى من
الأشواك . : رمال منبسطة ولا شيء غير ذلك من الجانبين . .
وضايقتنى الحرارة وصمت المندوب المسترخى والمقاعد الخشبية
الحالية ، وصار الملل لا يطاق ..

تذكرت الورقة فى جيبى ، والتي كان ملفوفا بها سندويشة
المندوب ، أخرجتها وفردتها .. وكانت أيضا تتحدث عن تاريخ
مصر الأصيلة والتي كثيراً ما حلمت بأننى أحد رعاياها المتعبدين
فى عراقة ترأسها وجهال إبداءها وسماحة فكرها - وهو الحلم الذى
لا أجرو على ذكره أمام أى واحد من هؤلاء - والتي كنت
أراها فى منامى وقد نفضت كافة القيود عن عقلها وروحها . .

● ما قرأته فى الورقة الثالثة :

: . وقد كانت فترة الاحتلال التركى العثمانى كارثة الكوارث
من حيث القمع والبطش والتهب ، لدرجة أن الجبرتى كتب فى
شهر أغسطس من عام ١٦٦٥ يقول بالحرف الواحد : « اجتمع
الفقراء رجالا ونساء وصبياناً وطلعوا القلعة ، ووقفوا بحوش
الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبههم أحد ، فنزلوا إلى الرميطة
ونهبوا وكالة القمح وحاصل كتخدا الباشا وكان ملاآنا بالشعير
والقول . : وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء ، وحصلت شدة

عظيمة بمصر وأقاليمها ، واشتد الكرب حتى خطف الفقراء
الخبز من الأسواق ومن رعوس الخبازين ، ويذهب الرجال
والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصي
حتى يخبزوه ثم يعودون به . . . مات الكثير من الجوع ، ١ ..
وأكل الناس الجيف ١ ..

. وانتهى الأمر بأن أشيع في الناس بأن القيامة قائمة
يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٧٣٥ م . . وفشا في الناس قاطبة ،
وودعوا بعضهم بعضا ، ويقول الإنسان لرفيقه بئى من أمرنا
يومان ... ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم . . وخرج
الكثيرون من الخنايع الرقعاء إلى الغيطان والحدائق ويقولون
لبعضهم البعض : دعونا نعمل خطا ونودع الدنيا قبل أن تقوم
القيامة !! »

لقد تمى الناس قومة القيامة لأن حياتهم صارت جحيا . . .
فإذا نحن تقدمنا في تاريخ هذا البلد - مصر - وإلى أن نصل
لأيامنا هذه وجدنا أن

... ..

ولم أتمكن من إكمال القراءة .. فليسبب مجهول - وعند هذا
الحد - مد المندوب يده فجأة وخطف الورقة منى وألقاها من
نافذة القطار .

سألته تفسيراً لذلك فلم يزد عن قوله :

— إن القراءة ممنوعة في قطار الخط المفرد ، إلى جانب أنها
تتعب النظر !!

وبعد ذلك مالت الشمس إلى المغيب لتزيد أشعتها الصفراء
من صفرة الصحراء الجرداء . . . ثم أخذت تعتم وتعم حتى
اسودت الأرض والسماء واختفت كل الأشياء . . ودخلنا في
ظلام لا آخر له ..

● ليل الصحراء وعتاب صغير :

. . . انتظرت أن يضاء نور العربة لكن هذا لم يحدث ، فكان
الظلام داخل القطار أيضاً ومن جميع الجهات . . وسيره بطيئاً
ورجسته كثيرة .. فتمت — ككل مرة — نوماً متقطعاً لا أعرف
مدته .. ومن حين لآخر كنت أرى عن قرب نقطة حمراء لسيارة
المندوب توهج ثم تنخفض ليخفت لوها ..

ثم تلا كل ذلك طالع ما يشبه الضوء المرتعش المكتوم
والحرارة حامية شديدة الوطأة . . وخلع مرافقي سترته وفعلت
مثله ، ولاحظت أن جسدي يتصبب عرقاً دون توقف .

طلبت من المندوب أن نتكلم معاً لكسر سخافة الوقت الممل ،

فأجاب بأن التعليمات لا تمنع الكلام في قطار الخط المفرد .
قلت :

— لاحظت أنك تعتمد إطالة مدة جولتنا هذه ، وأخشى
أن يكون ذلك لمضاغفة مكافأتك المالية . ولا تؤاخذني
إذا

قاطعتني في برود :

— كم أنت منيء الظن !!

أخرج مندياه وهسهع عينيه ثم تمخض وتهادج صوته :

— لم أكن أعرف أنك حاقد هكذا . . وبفرض أنني أتعمد
إطالة الطواف لمضاغفة ربحي ، فهل تكره لي أن أعيش شهر مصيفي
في رغد وهناء . . . هل تكره فائدة لأخيلك الإنسان !

● مخفر الرمال :

وعندما تابعنا رحلتنا سيرا على الأقدام وسط رمال الصحراء
ظل المندوب ممسكا عن الكلام ، ومنذ أن هبطنا عند آخر
الشريط المفرد وانقباض شديد يعصر قلبي ، ربما بسبب خلو
المكان القفر . . . لذلك فقد عجببت جدا عندما لاحظت لي بداية
المخفر المقصود ، خرسانية عملاقة في خلاء ممتد أجرد ! !

— فلماذا يبنون هذا الخنفر في هذا المكان القفر الأجرد !

في البداية رفض الإجابة ، فتسمرت في مكاني في عناد ، فسار
يتكلم وأنا من ورائه :

— تعرف أن كلية الشرطة تخرج الضباط كل عام .. أصواب
أم خطأ ؟؟

— صواب . .

(و ذكرتنى طريقة أسئلته بالرجل المضغوط رئيس هؤلاء
أبيوط الذى أمر بطوافي المؤلم هذا .. قال المندوب :

— ولقد امتلأت جميع الخافر الموجودة بالخريجين إلى درجة
الاستلاء . . ومع ذلك فإن الكلية تخرج كل عام دفعات جديدة
فأين يذهبون ؟؟

— ما دمنا لسنا في حاجة إليهم فلتغلق الكلية

— وأين يذهب موظفوه وأساتذته وضباطه ؟؟

● أبيوط تبتكر نظرية جديدة في نشوء المدن :

وعدت أسأله :

— لكنك لم تقل عن السر في إقامة هذا الخنفر هنا ؟ !

— بعد نظر

— لا أفهم

— لانتشار العمران

— لا أفهم أيضاً

— قد بما كانت المدن تنشأ حول منابع المياه أو حول مراكز
المواصلات .. أصواب أم خطأ ؟؟

— صواب ، وهذا معروف في التاريخ كله :

— لقد كان هذا يحدث في العصور المتخلفة : . أما في عصرنا
الحديث فالمدن تنشأ حول المخافر ، في البداية يجيء المخفر فيعم
الأمن في الحلاء المحيط به . وعندئذ تبنى البيوت ثم تتكون
المدن . .

— فهذا المخفر إذن هو نواة لمدينة جديدة ؟؟

— نعم . : وهذا هو التفسير الرسمي ، وهو كما ترى
مقتنع تماماً

ثم همس بالهمسة التالية :

— وهناك سبب آخر ، وهذا بينى وبينك ، وهو أننا نبنا

هذا الخفر تتيح فرصة التعيين لبعض الخريجين براتب كبير ففر ،
بهذا آباءهم وهم من ذوى الحثيثة ، وهذا بالطبع أفضل أ
مرة من أن نتركهم بلا عمل ، تسمع طبعاً عن نجاسة الأيد
البطالة ؟ ١

● همسات أخرى .. وأخيرة :

— وهناك فوائد إضافية لهذه المخافر الصحراوية ، وهى
نضع فيها المسجونين السياسيين ، فهم كما تعرف مشاغبو
وأصواتهم عالية ، وهنا يضع ضجيجهم فى رحابة الصحراء .
بالإضافة إلى سبب إنسانى نبيل وهو أن هواء الصحراء جاف يفر
مرضى الصدر ، ومعظم المسجونين السياسيين يشكون من =
الصدر بسبب انكبابهم على القراءة فى الغرف المغلقة أو فى المكتبات
الرطبة وبسبب أنهم ينفقون أموالهم فى اقتناء الكتب وليس .
شراء الأكل المفيد .. وعلى هذا يمكنك أن تقول وأنت مستر
الضمير بأن هذه المخافر بمثابة المصحات الطبية لأبدانهم ولعقولهم .

(وفى مجال الكتب ذكر لى أيضاً بأن قراءتها تروى العين
وبأن وجودها فى البيت يجلب المثران والصراخير) .

● آمال فوق الرمال :

أكد لى المندوب أن هذا هو الخفر الأخير .. وكانت الحقيبة

معه قد اكتظت عن آخرها باوراق البراءة ، وبقي لى أن أحصل على ورقة واحدة مشابهة من هذا المكان الذى ندنو منه وأنال حريتي وارتفاع هامتي .. وقررت فى نفسى أن أحاسب الرجل المضغوط حسابا عسيرا عند عودتى ، وقررت أيضا أن أفصح أمره لدى الناس وإن اكشف فظائع كل الجاحظين من أمثاله ، هكذا قر فرارى وفى مخيلتى صورة سجين الجحر فى المخفر الأربعين وفى أذنى صوته البائس ينصحنى بان أحارب الأوساخ بطريقتهم ، ثم وهو يقول بان اكتشاف العبرة إن جاء متأخرا فهو لا فائدة منه .

ورغم وهج الرمال وحرارة الجو إلا إننى حلمت بشقتى ووعدت نفسى بان أنام لدى عودتى ثلاثة أيام متتالية ، أمضيها بين الأكل والنوم ولا شىء .. ثم حلمت بحضن حبيبتى واسعة العينين ذات الهمسة الآسرة ، ورأيتنى أدعوها إلى اللقاء بعد استرداد عانيتى لاستمتع بقبلاتها وبأخذها فى حضنى . دونويت أن أصطحبها فى رحلة سياحية لبعض آثار مصر ، لتشاهد معى تلك الأميرة الساحرة المنقوشة فوق جدار المعبد الفرعونى كى ترى بنفسها كم هى قريبة الشبه منها ..

لكن أين هى الآن ؟ وماذا فعلوا أو يفعلون بها ؟ ولماذا أمسكوها ولماذا أمسكوا بى أصلا ؟
أمسكنى دوار القهر فمادت الرمال بى ..

● دوار المخفر الأخير :

ثم تماسكت من دوارى بصعوبة على زغلة البناية العالية ،
كبنائيات الفيلان فى قصص الخرافات ، لها باب رئيسى مغلق
مترب العتبة .. ولا آثار لأقدام عن قربها !! . . أتكون البناية
مهجورة غير مستعملة ؟ !

قال المندوب :

— سندخل من الباب الخلقى وهو ضيق

ودرنا .. وكانت أقدامنا تغوص فى الرمال الناعمة التى تسالت
بين أصابع قدمى من ثقب نعل الحذاء المتآكلة . . بينما راح
المندوب يمتدح ذكاء ضابط هذا المخفر ، فهو على عكس جميع
السابقين قوى الذاكرة بشكل حاد وقاطع .. قال :

— إنه يتذكر عادة مايفشل فيه أقرانه ، لدرجة أنه تذكر
تقريبا جميع الذين أحضرتهم من قبلك . .

دق قلبى .. قال :

— مع إنه يعانى من الفراغ والوحدة فى هذا المكان المنعزل !

● السابقون :

توقف المندوب ليرتدى سترته ويمسح عرقه وهو يقول :

— آخر مشتبه فيه أحضرته معى إلى هنا ، كان مثلك هكذا ،
طيب وديع ، يثور سريعاً ويهدأ أسرع .. ظل طوال رحلته يحدثنى
عن حنينه إلى طفله وزوجته ، وأرائى صورة طفلة وكان باسمها فى
الصورة وجميلاً . فأدركت أنه حظى بهذا الجمال عن طريق أمه .
واعترف لى الرجل بأنها فاتنة وأنه تزوجها بعد حب عظيم ، وبعد
نضال أعظم فى كسب ودها ...

قال فى عجب وهو ينتهى من هدامة نفسه :

— لا أفهم كيف يتزوج الإنسان بعد حب !! .. المرأة تؤخذ.
ومضى يحدثنى عن أحكامه فى النساء وفى أمور الدنيا بكلمات
نادرة حاسمة ..

● لا أحد .. لا أحد :

.. ثم عاد إلى قصة الرجل السابق لى وقال :

— قلت أنه كان وديعاً وطيباً ، مثلك تماماً ، وكنت قد
حصلت له على وثائق البراءة من جميع المخافر .. وكان هذا مخفراً
الآخر ، ولو ثبتت براءته لتوجه إلى زوجته الفاتنة وطفله الجميل ..
لكن ما أن دخلنا إلى الضابط الذكى ، وما أن وقع بصره على
المتهم ، حتى زال مله وانتعشت ملايحه الرسمية وبرقت عيناه

ظفرا وهو يخاطبه : « أخيرا وقعت في يدي .. لقد كنت أنتظر لك
أيها المجرم » .. ثم أدخله غرفة السجن هاتفا منتصرا بأن انتظاره
يدم طويلا فلا أحد يفلت .. لا أحد ..

أكمل المندوب :

— ثم تركته منه بعد أن وقع لي على إيصال باستلامه ..
وعند خروجي إلى الصحراء أخرجت وثائق براءاته ونثرتها
جميعاً فوق الرمال الشاسعة ، وتنفست الصعداء لأنها كانت تثقل
حقيبتى .. وبدأت أعود وصوت الضابط الذكى يردد منتصرا :
« لا أحد يفلت .. لا أحد » .

● شواهد الباب الخلفى :

تسببت أعصاب ساء .. وزاد توترى عندما فوجئت بما
هو موجود أمام الباب الخلفى ، عدد كبير من الأحجار الضخمة
الملقاة فوق الرمال وعلى مسافات شبه متساوية ! ! . . دهشت
وتساءلت عن سرها فابتسم المندوب وطمأننى :

— لا تخف إطلاقا .. إن المعاملة هنا أرقى منها في أى
مخفر آخر ، بالإضافة إلى أنها حاسمة وهادئة .

اقربنا من المدخل . وكان ضيقاً وخفيضاً ويتم عن ظلام

دامس في الداخل . . فألحنت على المندوب أن يخبرني عن سر
هذه الصعخور ، همست :

— تبدو كشواهد قبور !!

ابتسم :

— أعترف لك بالذكاء إلى جانب الطيبة والوداعة ، كالسابق
لك تماما ..

ارتجفت .. قال :

— لا تكن سيء الظن .. ألم تلاحظ أن رحلتنا إلى هنا كانت
طويلة جداً مرهقة جداً ؟!

أومأت . قال :

— وهذا هو السبب . فعند تخيير السابقين لك بين البقاء
هنا أو العودة اختاروا المكوث ..

كذب .. ضغطت على أسناني .. كذب .

قال :

— أيا لا أكذب .. ألم توافقني بنمسلك توا أن رحلة الحجى ء
كانت طويلة ومرهقة ؟ .. لقد فضّلوا جميعهم البقاء هنا عن
خوض تجربة الإياب . والمواطن حر في ذلك .

وبدون مناسبة علا صوته بالهتاف لديار أيموط الحرة ،
وبحياة رئيسها الديجم العظيم .. ثم أمرني بأن أتبعه ...

الفصل السابع والأخير

أيها الوديع الطيب

● الأصداء .. الأصداء :

— اتبعنى .: قلت لك اتبعنى .:

فخطوت خطوتى الأولى عبر عتبة الباب الضيق الخفيض..
وعدت أسأل المندوب :

— وهذه الأحجار التى فوق الرمال ، ماذا عنها ؟

قال بصوت بارد :

— اتبعنى أيها الطيب الوديع

فلما تقدمت أكثر صار كل ما حولى ظلاما واختنافا .:
وفقدت الرؤية فتنبعت أصوات خطواته ، محاذرا وفى ببطء .
كالسابع فى بحر الظلمات .. ولاحظت أن الصدى يردد وقع
خطواتنا ، وإن لأنفاسنا خشخشة كخشخشة أوراق الأشجار
المنساقطة .. وعندما تحدث المندوب ليجهينى على سؤالى حدثت
لصوته أصداء عديدة متتالية متداخلة .. ورنتم كلماته ورنتم
الأصداء وجاءنى جوابه :

... كما قلت أنت أيها الوديع الطيب ، فهذه الأحجار هى
بالفعل شواهد قبورهم ... قبورهم .. قبورهم .. هم ..

كتب للمؤلف

- ١ — فوستوك يصل إلى القمر قصص ١٩٦٧
 - ٢ — خمس جرائد لم تقرأ قصص ١٩٧٠
 - ٣ — الأيام التالية قصص ١٩٧٢
 - ٤ — دوائر عدم الأماكن — رواية طبعة أولى (نفدت) ١٩٧٢
طبعة ثانية ١٩٧٥
 - ٥ — أبناء الصمت — رواية (نفدت) ١٩٧٤
 - ٦ — غرائب الماوك ودسائس البنوك (حكايات حول قناة السويس) ١٩٧٦
 - ٧ — الهؤلاء — رواية (نفدت) ١٩٧٦
 - ٨ — الزليف — قصص (جائزة الدولة التشجيعية + وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى) ١٩٧٨
- ١٣٥

- ٩ — غرفة المصادفة الأرضية — رواية ١٩٧٨
- ١٠ — مغامرات عجيبة — (رواية للأولاد والبنات) ١٩٨٠
- ١١ — كشك الموسيقى — (رواية للأولاد والبنات) ١٩٨٠
- ١٢ — حنان — رواية ١٩٨١

رقم الايداع ٨٣/١٨٨٤
الترقيم التسويقي ٥-٠٢٩-١٧٢-٩٧٧

دار غریب للطباعة
۱۲ شارع نوینار (لاطوغلی)
ص ۰ ب ۵۸ (الدواوین) تلفون : ۲۲۰۷۹

الناشر
مكتبة غريب
٢٤٩ شارع ناصرية (بنها)،

الذمى ٩ • • قرش

دار الحبيب للطباعة
١١ شارع بومار (لاطوغلى) القاهرة
ص. ب. ١٨ (الدواوين) - تليفون ٢٢٠٧٩

To: www.al-mostafa.com